تاريخ المشرق الإسلامي

من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري

تأليف

الدكتور جميل بيضون   الدكتور أحمد عودات

الدكتور شحادة الناطور

دار الأمل

إربد

تاريخ المشرق الإسلامي

من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري

تاريخ المشرق الإسلامي

من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري

تأليف

الدكتور جميل بيضون الدكتور أحمد عودات

الدكتور شحادة الناطور

دار الأمل للنشر والتوزيع اربـــد - ص . ب ٤٦٩
تلفون ٢٧٦١٧٤

الطبعة الأولى ١٩٨٩

٩٥٦٣ر٠ ع ٩

شحا شحادة الناطور

تاريخ المشرق الاسلامي من القرن الخامس وحتى القرن السابع الهجري / شحادة الناطور ، جميل بيضون ، أحمد عودات ٠ـ اربد : مكتبة دار الأمل ، ١٩٨٩ ٠

(٢١٦) ص ٠

ر٠أ (١٩٨٩/٣/١٥٥) ٠

١ ـ العالم العربي ـ تاريخ ٠

أ ـ جميل بيضون ، مؤلف مشارك ٠

ب ـ أحمد عودات ، مؤلف مشارك ٠

جـ ـ العنوان ٠

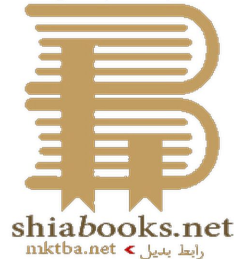
(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

موافقة دائرة المطبوعات والنشر

رقم الاجازة المتسلسل ١٩٨٩/٣/١٣٤

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية

١٩٨٩/٣/١٥٥



الطابعون
جمعية عمال المطابع التعاونية
هاتف ٦٣٧٧٧١-٣ - ص.ب ٨٥٧
عمان - الأردن

المقدمه

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

نضع بين أيدى اخواننا الاساتذة ، وأبنائنا الطلاب : كتاب " تاريخ المشرق الاسلامي من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري " وهو متمم لكتاب تاريخ الخلافة الاسلامية الذى سبق أن أعددناه حتى القرن الرابع الهجرى .

يتناول الكتاب الفترة الحرجة من تاريخ أمتنا العربية الاسلامية تلك الفترة التي شهدت الانقسام والتجزئة ، مما أدى الى ضعف الخلافة فطمع به الغزاه من صليبيين ومغول .

وقد شمل الكتاب دور الأتابكة في اعادة توحيد الامة ، ومقارعة الغزاة الصليبيين ، وتناول دور عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي في اعداد الامة من أجل القضاء على قوة الصليبيين في حطين وتحرير بيت المقدس .

وبين الكتاب الغزو المغولي ودور المماليك في مواجهة غزوهم وتحقيق الانتصار عليهم في عين جالوت ، فكانت فلسطين مقبرة للغزاة الصليبيين والتتار .

والكتاب بمجمله يظهر أثر التجزئة على ضعف الامة مما يشجع الطامعين من الغزاة على احتلال أجزاء من أراضي الامة الاسلامية كما يوضح دور الوحدة في تحرير الاجزاء المغتصبة ٠

وماأشبه اليوم بالامس ، والارض المغتصبة تنادى بلم الشمل والوحدة والتحرر من أيدى الغزاة الطامعين ٠

وأخيرا ،

كلنا أمل أن يسد هذا جزءا من الفراغ الذى قد يشعر به الزملاء عند تدريس هذا المساق ، ومهما بذلنا ، فسيبقى الكتاب ناقصا ، لان الكمال لله وحده ، وأملنا أن يسد أخواننا الاساتذة كل نقص ، وأن يزودونا بملحوظاتهم وارشاداتهم لنأخذ بها في المستقبل ٠

والله نسأل أن يأخذ بأيدينا الى مافيه الخير والصواب انه نعم المولى ، والهادى لكل صواب ٠

المؤلفون

١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م

الأهداف العامه

- أن يتعرف الطالب على أسباب ضعف دولة الخلافة وقيام الدويلات المستقلة .
- أن يتعرف الطالب على الدولة السامانية وأثرها في الحضارة العربية الاسلامية .
- أن يتعرف الطالب على أحوال الدولة الغزنوية وعلاقاتها مع العباسيين والبلاد الاسلامية المحاورة .
- أن يتعرف الطلاب على أحوال الدولة السلموفية في العراق وايران والاناضول والشام .
- أن يتعرف الطلاب على قيام دولة الاتابكة .
- أن يتعرف الطلاب على قيام امارة آل زنكي في الموصل ودورهم في توحيد الجزيرة الفراتية والشام .
- أن يبيّن للطالب دور آل زنكي في مواجهة الصليبيين .
- أن يتعرف الطلاب على قيام الدولة الايوبية ودورها في مواجهة الصليبيين .
- أن يتعرف الطلاب على العوامل التي أدت الى نجاح الغزو المغولي وسقوط الدولة العباسية .
- أن يتعرف الطلاب على دور المماليك في مواجهة الغزو المغولي .

الفصـــل الاول

ضعف دولـــة الخـلافـة وقيـام الدويـلات المستقلـة •

ضعف الخلافة

يعتبر الجيش الدعامة الرئيسية التي اعتمد عليها الخلفاء العباسيون في تثبيت دعائم حكمهم . غير ان الصفة لهذا الجيش أخذت تضعف منذ عهد المأمون حيث أنشأ فرقة جديدة اعتمد عليها . ثم ان العرب أخذوا يلتفون حول العباس بن المأمون ضد المعتصم الذى نكل بزعائمهم بعد توليه الخلافه وأساء الظن بهم [1] .

شعر المعتصم بأن موقفه أصبح حرجا ولذلك كان بحاجة الى عنصر حربي جديد يعتمد عليه في مواجهة الاخطار التي تجابهها الدولة وأهمها ثورة بابك الخرمي وخطر البيزنطيين واعتداءاتهم المتوالية على حدود الدولة وتذمر أهل الشام ومصر [2] .

كان العنصر الذى استخدمه المعتصم هو عنصر الاتراك فقد استقدم المعتصم عام ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ قوما من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة ووصل عددهم حوالي ١٨ ألف . وقد ميزهم المعتصم بلباس من الديباج عليها مناطق مذهبه [3] ، وكانت أعدادهم تصل الى عشرات الالوف .

وقد ترتب على الاعتماد على الاتراك والاكثار منهم في الدولة نتائج وخيمة اذ ان هذا العنصر رغم شجاعة عناصره العسكرية الا انه لايفهم الاسس المعنوية للدولة العباسية وليست له خبرة فى الادارة [4] .

---

(١) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة : ص ١٢ .

(٢) مروج الذهب : جـ ٤ ص ٥٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية : جـ ٩ ، ص ٣٣٨ القاهرة ١٩٣٩ .

(٣) البداية والنهاية : جـ ٩ : ص ٣٣٨ ـ لوبون : حضارة العرب : ص ١٧٧ .

(٤) دراسات فى العصور العباسية المتأخرة : ص ١٢ .

لذلك فلاغرابة ان يكون ظهور الاتراك في الدولة سببا في انتشار الفوضى وعاملا من عوامل ضعف الدولة • فقد أحدثت تصرفات الجند الاتراك تذمرا لدى أهل بغداد مما دفعهم الى الثورة والاحتجاج لدى المعتصم على وجود جنده بينهم وهددوه بالحرب : " أما ان تخرج من بغداد ، فان الناس قد تأذوا بعسكرك أو نحاربك " (١) • أدرك المعتصم الموقف وخطورته فأخرج الاتراك من بغداد الى مكان سامراء وبني لهم مدينة سر من رأى سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٤ م •

وصل الاتراك في زمن الخليفة الواثق الى مناصب قيادية في الجيش واعتمد عليهم في حكمه • حتى صاروا يتدخلون في الحكم • وقد أشار السيوطي الى ذلك بقوله (٢) " ان الواثق كان أول خليفة استخلف اشناس التركي على السلطنة والبسه تاجا " وقد منح هذا الخليفة الاتراك صلاحيات واسعة أدت الى زيادة نفوذهم ولاسيما عندما لم يتمكن من تعيين وليا للعهد بعده فجعل بذلك المجال مفتوحا للأتراك للتدخل في اختيار الخليفة (٣) • وقد قوى نفوذ الجند الاتراك ولاسيما القائد (ايتاخ) والقائد (وصيف) اللذين يرجع اليهما انتخاب المتوكل بعد وفاة أبيه الواثق • ومنذ ذلك الوقت أخذ نفوذهم يستفحل في جميع أجهزة الدولة وصار أمر اصطدامهم بالخليفة المتوكل أمرا منتظرا (٤) •

---

(١) معجم البلدان : جـ د ، ص ١٤ •

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء : ص ٢٢٦

(٣) الطبري : جـ ١١ ، ص ٩ ومابعدها - ابراهيم بيضون : التاريخ السياسي للدولة العباسية ، ص ٨٤ •

(٤) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة : ص ٤١ •

ورغم ان المتوكل أيد جانب السنه والجماعة فى القضاء على المعتزلة ليكسب تأييد الناس ضد القادة الاتراك والوقوف في وجه طموحاتهم السياسية الا ان سياسة اضطهاد أصحاب المذاهب الاخرى ومطاردة العلويين والتنكيل بهم وبأنصارهم ومصادرة أموالهم قد أدت الى سوء التفاهم بين العباسيين والعلويين وجلبت سخط كثير من الناس فغطت هذه السيئة جميع حسناته " [1] .

ورغم ان المتوكل قد حاول السيطرة على أمور الدولة ونجح الى حد كبير الا ان نهايته كانت على يد الاتراك . فكانت نهاية المتوكل بداية النهاية لسلطة الخليفة العباسي حيث صار صنع القادة العسكريين الاتراك يعزلون ويقلدون من أرادوا بقوة سيوفهم . ويرى أحمد شلبي [2] . ان نقل المتوكل فاتحة عهد أسود للخلافة العباسية حيث استمر هذا الاسلوب طيلة عهد الاتراك . واستمر فيما بعد الى عهد البويهيين . حيث تعرض الخلفاء خلال هذين العهدين الى سمل العيون والى القتل والتعذيب . وكان خلع الخلفاء أسهل ماينزل بهم من الاذى وقليل من الخلفاء من نجا من هذا المصير .

ولم يبق للخلفاء بعد مقتل المتوكل شيء يقول ابن طباطبا [3]
" استولى الاتراك منذ مقتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة في يدهم كالأسير ان شاؤا أبقوه وان شاؤا أخلعوه وان شاؤا قتلوه " .

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : جـ٧ : ص ٤١

(٢) أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي : جـ ٤ : ص ٢٩

(٣) ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية : ص ١٨١ .

نتج عن نفوذ الاتراك انتشار الفوضى والاضطراب الشديد • فاقترفوا الفضائح وانحطت هيبة الخلافة فتجرأ أمراء الاقاليم على الانفصال ولاسيما في ايران ومصر • كما فقدت الوزارة هيبتها واختلت الادارة وأصبح المجال مفتوحا لظهور التيارات الثورية الاجتماعية المكبوتة وكادت ان تقضي عليها [1] • مثل ثورات القرامطة وحركة الزنج •

لقد استبدل الاتراك كما ذكرنا بالخلفاء بعد المعتصم وبالغوا في كسر شوكتهم وكف أيديهم عن السلطة ، وكان من قبلهم الفرس قد ازدادوا قوة في عهد المأمون وصاروا يتدخلون في السلطة العباسية عندما اعتمد عليهم في ادارة الولايات الشرقية ، فلما استبد الاتراك بالامر أدرك الفرس ان سلطتهم قد ذهبت وان نفوذهم تلاشى في دار الخلافة فاستعاضوا عن ذلك بالانفصال عن الدولة والاستقلال بامارتهم •

وقد كثرت الحركات المعارضة للدولة في المشرق الاسلامي بشكل واضح خلال القرن الثالث الهجري • فقامت دويلات مستقلة فارسية وتركية أشهرها : الدولة الاموية في الاندلس ١٣٨ ـ ٣٩٧هـ / ٧٥٦ ـ ١٠٩٢) على يد عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك (الملقب بالداخل) وتأسست دولة الادارسة في المغرب الاقصى (١٧٢ ـ ٣١١ هـ / ٧٨٨ ـ ٩٣٢ م) على يد ابراهيم بن الاغلب ، وظهر الطولونيون (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥م والاخشيديون ٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ / د٩٣ ـ ٩٦٩ م والفاطميون ٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ ـ ١١٧١ م) في مصر •

---

(١) عبدالكريم غرايبة العرب والأتراك : ص ٨ •

وفي المشرق الاسلامي قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ - ٨٧٣ م) في خراسان ، وبعدها الدولة الصفارية ٢٥٤ - ٢٩٠ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٣ م) على يد يعقوب بن الليث الصفار . والدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ / ٨٧٣ - ٩٩٩ م) التي تفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٥١ - ٥٨٢ هـ / ٩٦٢ - ١١٣٦ م) في أفغانستان والهند .

ويلاحظ ان المشرق الاسلامي كان بالنسبة للخلافة العباسية هو المعين الخصيب الذي تستمد منه قوتها وأنظمتها منذ بداية نشر دعوتها . لهذا حدث ارتباط بين المشرق والخلافة يقوم على الولاء لها حتى في أقوى فترات ضعفها . ويلحظ ذلك بصورة واضحة في حرص هذه الدول التي استقلت على اعلان تبعتها وولائها عن طريق الدعاء للخليفة على المنابر وكتابة أسمه على النقود وارسال الجزية الى بغداد في كل عام وهذا عكس دول المغرب التي استقلت تماما عن الخلافة مثل الادارسة والامويون في الاندلس وغيرهم .

- ان هذه الحركات الانفصالية التي قامت في المشرق والمغرب الاسلامي قد أثرت على وحدة الدولة الاسلامية . لكنها في الوقت نفسه كان لها أثر كبير في تقدم الحضارة الاسلامية حيث ظهر في كل منها مراكز حضارية تنافس بغداد مثل قرطبة والقاهرة وبخارى وصار كل منها قبلة للعلماء والادباء والشعراء والكتاب يتنقلون بينها ويغدق عليهم أمراء هذه الدول الكثير وفيما يلي لمحة عن كل من الدولتين السامانية الغزنوية :

الفصل الثاني

الدولة الساسانية :

أ - اتساعها

ب - عوامل انهيارها

جـ - أثرها في الحضارة العربية الاسلامية .

الدولة السامانية :

تنتسب الدولة السامانية الى (سامان) الذى يروى انه ينحدر من نسل الساسانيين، وان نسبه يرجع الى الملك الساساني بهرام جور أو بهرام الخامس الذى توفي سنة ٤٣٩م· وهم من عائلة نبيلة في بلخ[١] وقد أسس سامان احدى القرى في منطقة بلخ فسميت باسمه[٢] وقد اعتنق جدهم سامان الاسلام حوالي سنة ١٢١هـ في خلافة هشام بن عبد الملك على يد الوالي الاموى أسد بن عبدالله وسمى ابنه أسدا[٣] .

ويبدو ان أسدا لم يكن رجلا فيه مواهب ذات أهمية مما جعل المؤرخين لايدونون عنه شيئا اللهم الا ماكان مرتبطا باسم أبيه أو اسم ابنائه [٤] .

وقد سطع نجم أبناء أسد في خلافة المأمون فعرف منزلتهم وأمر غسان ابن عباد (٨١٩ - ٨٢١) واليه على خراسان ان يعين هؤلاء الابناء في وظائف ر فيعة المستوى تقديرا لجهودهم فعين نوحا على سمرقند وأحمد حاكما لفرغانه ، ويحى حاكما على الشاش وأشروسنه والياس حاكما على هرات [٥] .

فكان هؤلاء قد نالوا السلطة في مناطق ضمها حكم الطاهريين · فلما ولى طاهر ابن الحسين بلاد خراسان أقرهم في هذه الاعمال [٦]· وعندما توفى

(١) حتى : تاريخ العرب (مطول) : ص ٤٦٢ ·
(٢) عبدالعزيز الدورى : دراسات في العصور العباسية المتأخرة : ص ١٢٠ ·
(٣) النرشخي : تاريخ بخارى : ص ٨٦ ·
(٤) كان أبناء أسد : الياس ونوح ويحي وأحمد (أحمد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية : جـ ٨ ، ص ٧١ ·
(٥) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية : جـ ٢ ، ص ١١٣
(٦) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام : جـ٣،ص٧٣ - أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي : جـ ٨ ، ص ٧١ ·

الياس سنة ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م فقد السامانيون هرات ولكنهم حافظوا على سلطانهم في ماوراء النهر (١) .

وقد عاش أحمد أكثر الاخوان عمراً رغم انه أحدثهم سنا . فبعد وفاة أخيه نوح سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م صار اليه حكم سمرقند كما امتد سلطانه فشمل الشاش وأشروسنه بعد وفاة أخيه يحي سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م ، وأصبح أحمد بذلك حاكما على المناطق التي كانت تحت حكم اخوته في ظل الطاهريين (٢)

وعندما سقط الطاهريون على يد الصفاريين سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م بقي أحمد في حكمه خاضعا للصفاريين الذين كانوا مشغولين بالصراع مع الخلافة العباسية وعندما توفي أحمد سنة ٢٦١ هـ / ٨٦٤ م أصبح ابنه نصر رئيسا للأسرة السامانية واتخذ سمرقند مركزا له . وفي سنة ٨٧٤ م ضم السامانيون بخارى حيث اصطحب اسماعيل وأسند اليه حكمها بالنيابة عنه وفي سنة ٨٧٥ هـ حصل نصر على عهد من الخليفة المعتمد العباسي بولاية ماوراء النهر بكاملها (٣) .

استطاع اسماعيل ان يقضي على عصابات اللصوص التي كانت تتألف من الفلاحين المتذمرين كما عمل على استرضاء النبلاء دون ان يعتمد عليهم فلما قوى مركزه تسرب الشك الى نفس أخيه نصر من تصرفاته وسرعان ماشب النزاع بين الاخوين (اسماعيل ونصر) واشتبكا في حرب كان النصر فيها لاسماعيل ووقع فيها نصر أسيرا في يد أخيه سنة ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م فعامله بكل احترام وصفح عنه وآثر ان يعطيه السلطة (٤) وخاطبه كرئيس ثم

---

(١) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة : ص ١٢١

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : جـ٧ ، ص ٢٧٩ ومابعدها .

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : جـ٧ ، ص ٢٨

(٤) النرشخي : تاريخ بخارى : ص ١١٥ .

رجع الى سمرقند وظل يحكمها كرئيس للاسرة السامانية وعمل اسماعيل تحت سلطة أخيه حتى مات نصر سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٤ م ٠

ولما توفى نصر آلت زعامة السامانيين الى أخيه اسماعيل الذى يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة السامانية ٠ ففى عهده تحولت الامارة السامانية الى مملكة وأصبحت بخارى عاصمة المملكة ولذلك يقول عنه النرشخي (١) انه أول السلاطين السامانيين ٠

وقد عمل اسماعيل على تدعيم نفوذ الدولة السامانية وتوسيعها فقام بعدة أعمال ٠

١ - قام اسماعيل بحملة عسكرية كبيرة ضد جيرانه المسيحيين (ناروز) الذين كانوا يهاجمون المناطق الاسلامية بين الحين والآخر وحقق انتصارا عليهم ونتج عن ذلك ان اعتنق الاسلام كبار قادة هذه البلاد (٢) واقتدى بهم الجماهير وحولت الكنيسة الكبرى الى مسجد وأعلنت الخطبة باسم الخليفة العباسي (٣) ٠

٢ - قام اسماعيل بمحاربة محمد بن زيد العلوى الذى كانت له السلطة فى طبرستان وانتصر عليه وضم طبرستان الى الدولة السامانية ٠

٣ - قام اسماعيل بحروب عظيمة ضد عمرو بن الليث الصفارى الذى خلف أخاه يعقوب واستطاع اسماعيل ان ينتصر على عمرو وأرسله أسيرا الى بغداد

---

(١) تاريخ بخارى : ص ١١٥ - ١٢٦

(٢) أحمد شلبي : الموسوعة التاريخ الاسلامي : جـ ٨ ، ص ٧٣ ٠

(٣) النرشخي : تاريخ بخارى : ص ١١٧ ٠

حيث قتله الخليفة [1] وقد كافأ الخيفة العباسي اسماعيل على أعماله فعينه حاكما على خراسان بالاضافة الى ماكان تحت حكمه وكذلك بالاضافة الى تركستان وجرجان وبعض المناطق الهندية ، وأصبح ملك السامانيين يشمل ماوراء النهر وخراسان وجرجان وسجستان وطبرستان وكرمان والرى فبلغت الدولة بذلك قمة اتساعها • وحافظ السامانيون على العلاقة الحسنة مع الخلافة العباسية ويقول النرشخي عن اسماعيل الساماني : انه يظهر الطاعة دائما للخلفاء ويرى متابعتهم واجبه لازمة " [2] .

ومما قام به اسماعيل يظهران عهده يعتبر أفضل العهود السامانية مما دعا الى اعتباره المؤسس الحقيقي للدولة السامانية •

وقد وصفه ابن الاثير [3] : " انه خيراً يحب أهل العلم والدين ويكرمهم " وقال عنه أيضا : " انه كان عاقلا عادلا حسن السيرة في رعيته حليما ... " [4] •

لم يظهر بعد اسماعيل أمير قدير من السامانيون • ولكن حسن ادارتهم واستقرار حكمهم في بلاد ماوراء النهر مكنهم من المحافظة على ملكهم مدة مائة سنه • فأقر الخليفة المكتفي أبا نصر أحمد بن اسماعيل على ولاية أبيه [5] •

---

(١) حتى : تاريخ العرب : ص ٤٦٢ ـ محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية : ص ٨٢ •

(٢) النرشخي : تاريخ بخارى : ص١٠٧ •

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : جـ٧ ، ص ١٠٠

(٤) المصدر نفسه : جـ ٨ ، ص ٢ ـ ٣

(٥) انظر الطبرى : جـ ٨ : ص ٢٤٩ •

أحمد بن اسماعيل : أقره الخليفة المكتفي على ولايتة أبيه سنة ٢٩٥ هـ وخلع عليه . وقد تم على يديه زوال الدولة الصفارية . فأسر غلامة سيمجور سبك البكرى غلام عمرو بن الليث الصفارى . كما أسر الليث ابن علي الصفارى وفي هذه السنه (٢٩٥ هـ) تمكن السامانيون من الاستيلاء على سجستان ، من المعدل ابن علي بن الليث الصفارى وأسر أخاه محمد بن الليث وبعث بسبك ومحمد الى بغداد [1]

لم تطل ولاية أحمد بن اسماعيل فقد هجم عليه بعض غلمانه وقتلوه سنة ٣٠١ هـ فحمل الى بخارى فدفن بها ولقب بالشهيد [3] .

فخلفه ابنه نصر الثاني - وكان في الثامنة من عمره : فاستصغر الناس عمره واستضعفوه واعتقدوا ان أمره لاينتظم مع وجود عم أبيه اسحق بن أحمد بن أسد صاحب سمرقند الذى استمال أهالي بلاد ماوراء النهر اليه والي ولاده . وتنافس أمراء البيت الساماني على السلطة فبعث الحق بعض أمراء البيت الساماني الي الخليفة العباسي المقتدر يسأله كل منهم أمره ناحية أمره ناحية من نواحي خراسان ، ولكن الخليفة وافق على ان يلي نصر بلاد ابيه ووافق على اللقب الذى تلقب به وهو السعيد . وضبط بلاده أبوعبدالله محمد بن أحمد الجيهاني [4] .

---

(١) الطبرى : جـ ١٢ ، ص ٠٠ ، ١٩ .

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : جـ ٨ ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) انظر : ابن الاثير : الكامل في التاريخ : جـ ٨ ، ص ٢٧

(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : جـ ٨ ، ص ٢٨ - حسن ابراهيم - تاريخ الاسلام : جـ ٣ ، ص ٧د .

على ان ذلك لم يمنع بعض أفراد البيت الساماني من الخروج على نصر ومحاربته طمعا في بسط سلطانهم على بعض نواحي دولته فأوقعت جيوشه بهم الهزيمة [1] .

كان دعاة الاسماعيلية في فارس وشرق الدولة الاسلامية يبذلون جهودا كبيرة لاستمالة كبار الامراء الى زعيمهم عبيدالله المهدى ومن هؤلاء الدعاة أبوعبدالله ابن أحمد النسفي الذى تمكن من أن يضم الى الاسماعيلية كثير من أهالي خراسان . ولم يكتفوا بما حققوه من نجاح في هذا الاقليم بل اجتاز نهر جيجون واتجه الى بخارى حيث لقى مساعدة من بعض كبار رجال الدولة السامانية ، وبفضل هؤلاء استطاع النسفى الوصول الى نصر بن أحمد الساماني الذى رحب بعبادته ودعاه لمقابلته وكان نصر بن أحمد من أكبر المعارضين للمذهب الاسماعيلي فقبض على أشقاء النسفى الحسين بن على المروزى وسجنه وظل في سجنه حتى توفى [2] . لكن النسفي استطاع بحسن سياسته ودهائه ان يستميل نصر بن أحمد الى جانب الخليفة الفاطمي عبيدالله المهدى فطلب منه ديه استاذه فأجاب الامير نصر طلبه ، وأرسل النسفي الدية الى عبيد الله المهدى ليبر ليبرهن له على اخلاص نصر للدعوة الاسماعيلية [3] . ويدل على ميل نصر ابن أحمد الساماني الى الدعوة الاسماعيلية الكتاب الذى أرسله الى عبيدالله المهدى يعترف بسلطته الروحية ويعد بامداده بالرجال : وقد قال في كتابه

---

(١) المصدر نفسه : جـ ٨ ، ص ٤١

(٢) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية : ص ٨٣

(٣) ابن النديم الفهرست : ص ٢٦٦ .

" أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني وليس على المهدى بهم كلفه ولامؤنه فان أمرني بالمسير سرت اليه ووصف بسيفي ومنطقتي بين يديه وامتثلت أمره " [1] .

ازداد نفوذ الداعي أبي عبدالله محمد بن أحمد النسقي في عهد نصر السامانى حتى أصبح صاحب الامر والنهي في دولته . فاستغل هذا المركز لمضاعفة جهوده في نشر الاسماعيلية مما أثار عليه حفيظة كبار الدولة السامانية من السنيين وبخاصة بعض القواد والعلماء الذين أخذوا يكيدون له ولأنصار المذهب الاسماعيلي . ولما أدرك نصر الخطر المحدق به من قواده السنيين نزل عن الاماره لابنه نوح الذى وجه اهتمامه الى القضاء على الدعوة الاسماعيلية وانصارها في بلاده فدعا الفقهاء لمناظرة النسقي فلما تغلبوا عليه بحججهم أمر بقتله وقتل الكثير من القواد الذين دخلوا في المذهب الاماعيلي سنة ٣٣١ هـ .

نواح بن نصر / ٣٣١ - ٣٤٣ هـ :-

تولى نوح بن نصر بلاد خراسان وماوراء النهر سنة ٣٣١ هـ وبدأ حكمه بالعفو عن بعض الامراء الذين كان يحقد عليهم في حياة أبيه ليأمن خروجهم عليه وليتألف قلوبهم وولاهم بعض الولايات . وفي أيام نوح بدأ الصراع بين السامانيين والبويهيين . ومنذ منتصف القرن الرابع الهجرى أخذت بوادر الانحلال تظهر في الدولة السامانية بسبب وقوع النزاع بين أفراد البيت الساماني وضعف الامراء السامانيين وخروج القواد والعمال

(١) محمد جمال سرور : تاريخ الحضارة : ص ٨٤ .

عليهم وتطلع البويهيين الى امتلاك بلادهم .

وعمل نوح بن نصر على استرداد الرى من يدركن الدولة بن بويه وانتهى بهزيمة جيوش نوح بسبب انضمام جنده الى البويهيين . غير ان نوحا أعد قوة جديدة لمحاربة ركن الدولة واستطاع في سنة ٣٣٣ هـ من الاستيلاء على الرى وعلى بلاد الجبل [١] .

وقد خرج أبوعلى بن محتاج الذي أخلص له ولابيه من قبل [٢] ثم ان الجند راسلوا ابراهيم بن أحمد بن اسماعيل عم نوح بن نصر وكان قد انضم الى ناصر الدولة بن حمدان وطالبوا بالحضور لمبايعته فأجابهم الى طلبهم . وقامت الحرب بين نوح من جهه وبين أبي علي وابراهيم بن أحمد من جهه أخرى وتمكن ابراهيم ان يستولى على مرود بنيا بور وبخارى في سنة د٣٣ هـ وخطب فيها ابراهيم بن أحمد . على ان الخلاف مالبث ان وقع بين ابراهيم وبين أبي علي فمال ابراهيم الى نوح . ووقعت حرب بين أبي علي ونوح بن نصر سنة ٣٣٧ هـ وانتهت بعقد الصلح بينهما [٣] .

واستطاع نوح بن نصر ان يسترد الرى والجبل من ركن الدولة بن بويه الذى كان له أثر كبير في اثارة أبي علي سنة ٣٣٩ هـ / [٤] . وقد

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : جـ٨ ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٢) ابن الاثير : جـ ٨ : ص ١٦٤ .

(٣) ابن الاثير : جـ ٨ : ص ١٦٤ ـ ١٦٧ ـ ١٦٧ .

(٤) مسكويه : تجارب الامم : جـ ٢ ، ص ١٠٠ ـ ١٠٤ .

أسند نوح قيادة جيوش خراسان الى ابي علي الذى تمكن بمساعدة وشمكير ابن زيار ان يرغم ركن الدولة بن بويه على أن يدفع بن نصر جزية سنوية مقدارها مائتا ألف دينار • الا ان نوحا عزل أبا علي مما جعله ينضم الى ركن الدولة ثم تدخل لدى الخليفة العباسي فأقره على ولاية خراسان بمساعدة معز الدولة البويهي سنة ٣٤٣ هـ وهي السنة التي توفى فيها الامير نوح بن نصر (١) •

تولى الحكم بعد نوح ابنه عبدالملك بن نوح سنة ٣٤٣ هـ فولى قيادة جيوش خراسان بكر بن مالك وأرسله من بخارى لاخراج أبى على بن محتاج فهرب ولجأ الى ركن الدولة في الرى حيث أكرمه (٢) •

غير ان عهد عبدالملك لم يطل اذ تو في اثر كبوة فرسه سنة ٣٥٠ هـ فآلت إمره السامانيين الى أخيه منصور بن نوح • وفى عهده حدثت فتن في خراسان مما أدى الى تسرب الضعف الى الدولة السامانية(٣)

وفي عهد المنصور تمرد أهل سجستان على اميرهم خلف ابن أحمد وعينوا مكانه طاهر بن الحسن الذى لم يلبث أن طرده خلف بمساعدة منصور بن نوح • غير ان خلف بن أحمد تمرد على الامير الساماني منصور ووقعت بينهما حربا استمرت سبع سنوات انتهت بعقد صلح بينهما وأعاده الخطبة لمنصور بن نوح ويقول في ذلك ابن الاثير (٤) •

---

(١) تجارب الامم : جـ ٢ ، ص ١٥٤ ـ ١٥٧ •

(٢) تجارب الامم : جـ ٢ : ص ١٥٧

(٣) تجارب الامم : جـ ٢ : ص ١٨٩

(٤) ابن الاثير : جـ ٨ : ص ٢٠٢ •

" وكان هذا أول وهن دخل على الدولة السامانية ٠ فطمع أصحاب الاطـــراف لسوء طاعة أصحابهم لهم " ٠

وتطلع البويهيون الى امتلاك بلاد السامانيين فقامت الحرب سنـــة ٣٥٦ هـ بين منصور بن نوح وبين ركن الدولة بن بويه في جهات الـــرى [١] وظل العداء بين السامانيين والبويهيين قائما حتى سنة ٣٦١ هـ حيث تـــم الصلح بين الامير منصور وركن الدولة وابنه عضو الدولة وتزوج نوح بابنـــه عضو الدولة وحمل اليه الهدايا وكتب بينهم كتاب وشهد عليه أعيان خراسان وفارس والعراق [٢] ٠

وبعد وفاة منصور بن نوح سنة ٣٦٦ هـ تولى ابنه نوح الثاني الحكم وكان عمره ثلاثة عشر سنة ٠ فقام بأمر الدولة السامانية في بداية حكمه وزيره الحسن العينى ٠ غير ان قائد جيش خراسان من قبل السامانيين استبد بالامر ٠ فنزل الوزير العتبى وولى أبا العباس تاس أمره الجيش ٠ وقامت الحرب بين السامانيين والبويهيين [٣] كما قامت ثورة على يد أحد أمـــراء البيت الساماني ضد نوح الثاني بعد ان حلت الهزيمة بجيوشه [٤] ٠

وفي عهد نوح بن منصور تعرضت الدولة السامانية للزوال ٠ ففـــى سنة ٣٨٣ هـ ثار بعض قواد السامانيين هما أبوالحسن بن سيمجـور وقائـــد الخاصة غلام نوح ابن نصر واتصلا بشهاب الدولة هارون بن سليمان ايلـــك

---

(١) ابن الاثير : جـ ٨ : ص ١٩٠ ـ ١٩١

(٢) أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة : جـ ٤ : ص ٦٢ ـ انظر ابن الاثير :جـ٨ :ص٢٢ه

(٣) ابن الاثير : جـ ٩ : ص ٤ ـ ٥

(٤) ابن الاثير : جـ ٩ : ص ١٠ ـ ١١ ٠

المعروف ببغراخان التركي فاستطاع (ايلك) من هزيمة جيوش نوح بن منصور واحتل بخارى الا ان نوحا تمكن من استردادها أثر موت بغراخان وثورة الاهالي ببخارى عليه [1] ونتيجة لتعرض السامانيين لثورة القواد فقد استعان نوح بن منصور سنة ٣٨٤ هـ بسبكتكين صاحب عزنة للوقوف في وجه الثوار فانتصر على جيوش الثوار قرب هراه واستعاد نوح نيسابور وعين عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين ولقبه سيف الدولة . وعاد نوح الى بخارى وعاد سبكتكين الى هراه وأقام محمود بنيسابور [2] . غير ان الثوار لم يلبثوا ان انتصروا على محمود سبكتكين

دام حكم نوح بن منصور مايزيد على احدى وعشرين سنة ٣٦٦-٣٨٧ هـ وكان حكمه مليئا بالحروب الاهلية والثورات الداخلية . ولعل ذلك يعود لصغر سنه وتدخل النساء في الحكم وتزايد نفوذ الوزراء . وطمع أمراء الاطراف واستئثارهم بالسلطة وطمع الاسرة البويهية والاتراك في أملاك السامانيين وقيام المنافسة بين أفراد البيت الساماني نفسه [3] .

ولاشك في ان اعتماد السامانيين على الاتراك في جيوشهم . وهم من العناصر التي تأكد خطرها على الدول المعاصرة لهم كان له أثره في أضعاف دولتهم والاسراع بزوالها . حيث ان هؤلاء الاتراك سرعان ماتقلدوا المناصب العالية في الجيش والادارة المدنية . وأصبحوا خطرا عليهم بسبب السلطات الواسعة التي استأثروا بها [4] .

(١) ابن الاثير : جـ ٩ : ص ٤٨ .

(٢) ابن الاثير : جـ ٩ : ص ٤٨ .

(٣) حتي : تاريخ العرب : ص ٤٦٣ - بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية : جـ ٢ : ص ١١٨

(٤) ابن الاثير : جـ ٩ : ص ٤٨ .

عوامل انهيار الدولة السامانية :-

بعد وفاة بن منصور الساماني سنة ٣٨٧ هـ تولى الحكم ابنه منصور فأخذ يتألف قلوب من كان حوله بالاعطيات والهبات وخاصة منهم الانصار والقواد . لكن (ايلك) التركي المعروف ببغراخان اتخذ من موت نوح بن منصور ذريعة لاحتلال سمرقند سيما وانه كان قد استولى على بخاري سنة ٣٨٣ هـ . وساعده في ذلك قائد الخاصة الذى استولى على بخاري مدعيا انه يعمل لخدمة الامير الساماني منصور [1] .

ثم بدأ النزاع بين الامير منصور ومحمود الغزنوى الذى أثار حقده وغضبه تولية بكتوز خراسان وطالب باعادته اليه . ولما لم يستجب لطلبه فقد عمل بكتوزون وفائق الخاصة على القبض على منصور بن نوح وسملا عينه ثم وليا أخاه عبدالملك الحكم .

اتخذ محمود الغزنوى من اضطراب الامور فرصة للاستيلاء على نيسابور وبخارى ، واستقر ملكه بخراسان وأزال نفوذ السامانيين عنها وخطب فيها للخليفة القادر بالله . ووقعت بلاد ماوراء النهر في يد أيلك ببغراخان الذى قصد بخاري وتودد الى عبدالملك بن نوح لكنه مالبث ان قبض على عبدالملك وعلى قواده وعلى منصور بن نوح وحبس أقاربه سنة ٣٩٠ هـ وبذلك انقضت الدولة السامانية ويمكن ارجاع عوامل زوال الدولة السامانية الى مايلي :

(١) ابن الاثير : جـ ٩ : ص ٤٨ .

١ ـ وقوع النزاع بين أفراد البيت الساماني .

٢ ـ خروج القواد وعمال الاقاليم على الامراء السامانيين وكثرة الثورات الداخلية التي كانت لمطامع الحرس التركي اليد الطولى فيها مثل أبي علي بن المحتاج وابن سيمجور .

٣ ـ اعتماد السامانيين على الاتراك في جيوشهم وتعاظم نفوذ الحرس التركي الذين تقلدوا المناصب العالية في الجيش والادارة المدنية وصاروا يتلاعبون بالامراء ويتدخلون بالسياسة واسقطوا هيبة الوزارة وهيبتها فاختلت الادارة واضطربت الامور المالية حتى أصبحت الخزينة تشكو من الافلاس . فعجلوا بخطرهم بزوال الدولة .

٤ ـ تدخل النساء والوزراء في الحكم بسبب صغر سن بعض الامراء مثل نوح الثاني بن منصور بن نوح .

٥ ـ ظهور الدولة الغزنوية على حدودهم وقيام الحروب بينهم وبين السامانيين وانتصار البويهيين على السامانيين قرب مرو ثم الاستيلاء على أقاليمهم مثل خراسان وبلاد ماوراء النهر .

٦ ـ استعانة بعض أمراء البيت الساماني وعمال الاقاليم بالبويهيين ضد الامراء السامانيين مثل نوح بن نصر ، ثم تحقيق انتصارات عليهم مما أضعف الدولة السامانية .

٧ ـ طمع البويهيين بأراضي الدولة السامانية وكذلك طمع الاتراك بالدولة السامانية والعمل على السيطرة عليها .

وهكذا زالت الدولة السامانية على أيدى الغرنويين وخانات تركستان وأصبحت كأن لم تكن بالامس كدأب الدوله قبلها ،ان فى ذلك لعبرة لأولى الألباب " (١) .

أثر الدولة السامانية فى الحضارة العربية الاسلامية :-

✓ وضع اسماعيل الساماني أسس الادارة للدولة السامانية وسار بموجبها من جاء بعده وكانت سببا فيما وصلت اليه الدولة من نجاح . فكان النظام الادارى الساماني تقليد لما كان عند الخلفاء العباسيين فالامير الساماني كان له النفوذ والى جانبه هيئة تنفيذية برئاسته . وهناك أمراء للمقاطعات التي بعد الدولة السامانية .

وكان رجال العلم في الدولة السامانية يتمتعون بمكانة عالية ونفوذ كبير . وكانت نصائحهم موضع تقدير الامراء واهتمامهم . وكانت هناك خزانتان : خزانة للنفقات في الظروف العادية وأخرى للطوارئ، بحيث لاينفق منها الا عند الضرورة . وكان مايؤخذ منها يعد دينا يلزم اعادته . وبمرور الايام نالت تلك النظم كثيرا من التغير اذ اضمحلت.

سلطة الامراء تسربت السلطة الى الاتراك وصار الجيش يتدخل في السياسة وفرضت ضرائب جديدة بسبب فراغ الخزائن مما أثار الشعب عند الاميـر فاتخذ الشعب جانب الثورة مما وضع نهاية للدولة (٢) .

✓ وكانت خراسان وماوراء النهر قد ازدهرت فى عهد السامانيين وكانت خراسان تنقسم الى أربعة أقسام : قسم عاصمته نيسابور وقسم

---

(١) ابن الاثير : جـ ٩ : ص ٥٤ ـ ٥٦ .

(٢) انظر موسوعة التاريخ الاسلامي : جـ ٨ ، ص ٧٧ .

عاصمتـه مـرو وثاني عاصمتـه هـراه ورابـع عاصمتـه بلـخ . أمـا بـلاد ماوراء النهر فكانـت تنقسـم الـى خمسـة أقسـام : الصغـد وعاصمتـه بخـارى وسمرقنـد والـى الغـرب مـن الصغـد خـوارزم والقسـم الثالـث صفانيـان . والرابـع غانـه والخامس الشاش [1] .

بـلغ نفـوذ السـامانييـن أوجـه فـي نـهايـة القـرن الثالـث الـهجـرى فكانت بـلاد مـاوراء النهـر والجبـل وايـران خاضعـة لنفوذهـم . وكـان فـي داخـل دولتهـم ولايـات تكـاد تكـون مستقلـة مثـل بـلاد اسجستـان وهـذه البلاد كانـت تقيـم الخطبـة للأمـير السـامانـي فـى بخـارى كمـا كانـت ترسـل اليـه مبالـغ ماليـة سنويـة نتيجـة لاتسـاع الدولـة فقـد اضطـر السـامانيـون الـى انشـاء مايشبه منصـب " نـائب ملـك " فكانـوا يقيمـون فـي بخـارى ويقيـم قائـد جيشهـم فـى نـيسـابـور [2] .

وكانـت بخـارى تحـت حكـم السـامانييـن موطـن الجـلال والفخـر ومركـز الـزهو والعظمـة وأفـق الادب والادبـاء ومكانـا لالتقـاء العلمـاء والقـادة وذوى الـرأى [3] .

ويصـف القـزوينـى بخـارى فـى هـذا العـهـد بقولـه : " ان بخـارى كانـت دائمـا مجمـع الفقهـاء ومعدن الفضلاء ومنشـأ علـوم النظـر وأكـثر سكانـها مـن نسـل عمـر بن عبدالعـزيز . وقد توارثـوا تربيـة العلـم والعلمـاء كـابرا عن كابر ولـم تـر مدينـة كـان أهلـهـا أشـد احـترامـا لاهل العلـم من بخـارى .

---

(1) انظر : محمد جمال سـرور : تاريخ الحضارة الاسلامية : ص ٨٥

(2) آدم متنز : الحضارة الاسلامية : جـ١ : ص ٣٠ ـ ٣١

(3) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى : جـ ٨ : ص ٨ : ص ٧٦

ولعل مما ساعد على النهضة الفكرية وانتشار الحضارة في العصر السامانى وانتشار الامن والاستقرار في ربوع هذه الدولة في الوقت الذى كان فيه الاضطراب منتشرا في العراق وسوريا واليمن والحجاز بسبب ماكان يقوم به القرامطة من أعمال نهب وتخريب فقد أشبه نصبالمأمون حتى انه كان يسمى مأمون السامانى . وهو الذى عاش فى رحابه الثعالبى (١) .

وكان للامراء السامانيين فضل في تشجيع العلم والادب ، فقد شملت النهضة الفكرية في عهدهم جوانب علمية وجغرافية وتاريخية وأدبية

وخير مثال على النهضة العلمية فى هذا العهد : ان نذكر ان العالم ابن سينا عاش في رحاب السامانيين . اذ عاش في عصر نوح الثاني ويقول ابن سينا مقدرا جهود السامانيين وعنايتهم بالمكتبات : " لقد دخلت مكتبة السامانيين فوجدتها مقسمة الى حجرات فسيحة في كل حجرة مجموعة هائلة من الكتب من فن من فنون المعرفة . فهنا حجرة لكتب الشعر وأخرى لكتب القانون وثالثة لكتب الشريعة وهكذا . وقد قرأت بعض هذه الكتب واستفدت منها استفادة عظيمة وبعض هذه الكتب نادر لم يعرف اسمه لدى كثير من الناس (٢) .

وفي بلاط السامانيين ازدهى رجال من عباقرة العلوم والفنون مثل :

---

(١) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى : ج ٨ : ص ٧٦

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الابناء : جـ ٢ : ص ٤

الشاعرين الكبيرين : الرودكي والدقيقي اللذين تنسب لهما نشأة الشعر الحماسي الذي أحيا روح الوطنية الايرانية [1] ومثل أبي على ابن سينا

ووجدت العلوم التاريخية والادبية اهتماما كبيرا من السامانيين وفيما يلي بعض الاعلام الذين عاشوا في هذا العهد :

١ - البلعمي : وهو أبوعلي بن أحمد البلعمي . كان وزيرا لعبدالملك الاول وللمنصور الاول السامانيين . وقد ترجم هذا العالم كتاب الطبرى في التاريخ الى اللغة الفارسية [2]

٢ - عبدالله محمد بن أحمد الجهياني : وقد عاش في عصر نصر الثاني وألف عدة كتب في فنون مختلفة من بينها كتابه المسالك والممالك

٣ - وهناك عدد من المؤرخين الذين كتبوا تاريخ بخارى عاصمة الدولة السامانية منهم : أبوبكر بن جعفر الذي قدم تاريخه بخاري الى نوح بن نصر . وشمل لمحات عن أهمية بخارى ومكانتها وجلالها وبهائها وجميع العلماء الذين عاشوا فيها وفي المناطق المحيطة بها . وقد كتب باسلوب عربي رائع .

ومنهم ايضا ابو عبدالله .لوراق الذي كتب تاريخا اخر لبخاري وهو يشمل تاريخ السامانيين انفسهم ؛ ومنهم كذلك الحاكم بن عبدالله النيشابوري .قد كتب في تاريخ العلماء الذين عاشوا في بيشابور .وكان هؤلاء العلماء من الكثرة بحيث ان الكتاب الذى ألفه فيهم وصل الى ثمانية اجزاء .

وللأمراء السامانيين فضل كبير في تشجيع الادب . وبخاصة الادب الفارسي الذي بدأ ينتعش منذ القرن الثالث الهجري حتى ان الفرس أخذوا

---

(١) ايران : ماضيها وحاضرها : ص ٥٢ - ٥٣

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام : جـ ٣ : ص ٨٢ - موسوعة التاريخ الاسلامي حـ ٨ : ص ٧٨ .

يؤلفون بلغتهم الفارسية • وقد بدأ الروح الفارسي يظهر في الادب الفارسي منذ ذلك الوقت ومن ذلك كتاب الشاهنامة الفردوسي [1] •

فقد عادت اللغة الفارسية للظهور في العهد السامانى وصار يظهر منها نثر وشعر وذلك الى جانب ماكتب باللغة العربية في مجال الادب من شعر ونثر • ومن أشهر كتب الادب في العصر الساماني يتيمة الدهر للثعالبى •

وكان الامير منصور الثانى يقف مع أشهر الادباء في عصره • وقد كان متحمسا وحاول ان يضفى على الدولة روح الشباب التى كان يتمتع بها الا ان الهرم سيطر على الدولة فاتجه الى الادب والشعر يضع فيهما قدراته [2]

وفي مجال الطب والفلك والفلسفة كان الفرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلا من الفارسية حيث لم يكن لهذه العلوم علاقة كبيرة بالادب الفارسي •

وكان من أشهر كتب الطب في ذلك العصر : الكتاب المنصورى الذى ألفه أبوبكر الرازى وأهداه الى أبي صالح منصور بن اسحق السامانى الذى حكم سجستان نيابة عن السامانيين •

ويذكر ان ابن سينا الذى كانت علاقته متينة بالسامانيين روى انه رأى فى مكتبه مدينة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب مالم يسمع بمثله من قبل (٣).

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام : جـ ٣ : ص ٨٢

(٢) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى : حـ٨ : ص ٧٩

(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء •

ومن مظاهر تأثير السامانيين في الحضارة النهضة الصناعية التي قامت في عهد السامانيين فكان يقود هذه النهضة رجال من الصين ومن مصر وكانت الصناعة تشمل مصانع للقطن وأخرى للحرير وثالثة للمعادن وبخاصة الاسلحة، ومما ساعد على النهضة الصناعية تشجيع الامراء السامانيين وتوفر مناجم الفحم التي اشتهرت بها فرغانة واشتهرت سمرقند في العهد الساماني بصناعة الورق الذى يعتبر أساسا للحضارة ... وترتب على النهضة الصناعية ايلاء الطرق اهتماما زائدا وذلك لنقل البضائع من مكان الى آخر وأهم هذه الطرق التي اهتمت بها الدولة الطريق الواصل بين جورجان شمالا الى خراسان جنوبا • والطريق المواصل من البحر الاسود الى أوروبا [1] •

وفي نهاية عهد السامانيين تحولت الدولة الى ولايات واقطاعات وصادف هذا التحول ظهور البويهيين والغزنويين في تلك البقاع مما حتم على السامانيين الخروج من الساحة واخلاء الطريق للقوة الجديدة القوية •

هذا ايجاز عن الدولة السامانية التى تمثل أخطر دولة في ايران لعبت دورا هاما في تاريخ هذه البلاد ووضعت الاساس لاعادة اللغة الفارسية الى الحياة • كما شجعت التشيع حتى صار المذهب الرسمي لايران •

وملوك السامانيين هم :-

١ - نصر الاول بن أحمد ٢٦١ هـ - ٨٧٤ م

٢ - اسماعيل بن أحمد ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م

٣ - أحمد بن اسماعيل ٢٩٥ هـ - ٩٠٧ م

٤ - نصر الثاني بن أحمد بن اسماعيل ٣٠١ هـ - ٩١٣ م

٥ - نوح الاول بن نصر الثاني ٣٤٣ هـ - ٩٥٤ م

---

(١) انظر موسوعة التاريخ الاسلامي : جـ ٨ : ص ٧٩ •

٦ ـ عبدالملك الاول بن نوح ٣٤٣ هـ ـ ٩٥٤ م

٧ ـ منصور الاول بن نوح ٣٥٠ هـ ـ ٩٦١ م

٨ ـ نوح الثانى بن منصور ٣٦٦ هـ ـ ٩٧٧ م

٩ ـ منصور الثانى بن نوح الثانى ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م

١٠ ـ عبدالملك الثاني بن نوح الثاني ٣٩٠ هـ ـ ١٠٠٠ م

الفصل الثالث

الدولة الغزنوية

١ ـ اتساعها

٢ ـ أحداثها الداخلية

٣ ـ علاقاتها

٤ ـ ضعفها وانهيارها

د ـ نظمها وحضارتها ٠

للدولة الغزنوية :- ٣٤٩ - ٥٧٩هـ / موسوعة التاريخ

٣٥١ - ٥٨٢هـ / ٩٦٢ - ١١٣٦ م / حسن ابراهيم

أ - اتساعها :

يرجع قيام الاسرة الغزنوية الى نشاط بعض القادة الاتراك في بلاط الامراء السامانيين ٠ اذ كان لهم سلطان واسع في الجيش الساماني وهم الذين دبروا مقتل أحمد بن اسماعيل وسيطروا على نوح الثاني (١) ٠

وتعود علاقة الاتراك بايران الى عهد الدولة الاخمينية اذ كانت توكل الى الاتراك الذين يهاجرون الى ايران من أجل العمل الحراسة والاشتراك في الجيوش لكفاءتهم الحميمة ٠ وكان الخليفة العباسي قد اعتمد عليهم في هذا المجال بعد توليه الخلافة ٠

ولم يقنع الاتراك منذ بداية الدولة الغزنوية بما قنعوا به في الخلافة العباسية من نفوذ بل اتجهوا لتكوين الدول والممالك في العالم الاسلامي (٢) ٠

كان (البتكين) من الموالي الاتراك الذين كانت لهم منزلة كبيرة عند السامانيين ٠ فكان يقود جيش نوح الاول الساماني (٣٣١ - ٣٤٣ هـ) ثم عينه عبدالملك بن نوح (٣٤٣ - ٣٥٠ هـ) حاجبا في بلاطه ثم عينه ٣٤٤ هـ عاملاً على هراه في خراسان وأوصاه ان يكون الحكم من بعده لابنه ٠ غير ان البتكين عجز بعد وفاة عبدالملك وتولى منصور بن نوح الامر من تنفيذ وصية أخيه ثم انه أقصي من منصبه فلجأ الى مدينة غزنه التي كان أبوه

(١) عبدالكريم غرايبة : العرب والترك : ص ٢٧

(٢) أحمد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية : جـ ٨ : ص ٨٦ ٠

عاملا عليها من قبل السامانيين • وتبعه بعض رفاقه والساخطون على المنصور • وبعد وفاة أبيه سنة ٣٥٢ تولى مكانه وعجز المنصور في القضاء على البتكين • وعظم شأنه [١] •

وبعد وفاة البتكين آلت السلطة الى ابنه اسحق الذى حكم سنة واحدة دون ان يتمكن من توسيع حدود بلاده • وخلفة بعض الاتراك الذين ليس لهم ذكر في التاريخ مثل (بلكانين - مملوك الحق و (بيرى) احد أهالي المدينة ، والذين سرعان ماأخلوا الطريق الى سبكتكين أحد موالي البتكين وزوج ابنته الذى يعتبر المؤسس الحقيقي للاسرة الغزنوية

ويذكر ابن الاثير [٢] : ان اسحق البتكين لما توفى " ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للحكم • اجتمع عسكره ونظروا فيمن يلي أمرهم ويجمع كلمتهم فاختلفوا ثم اتفقوا على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال الخير فيه فقدموه عليهم وولوه أمرهم وحلفوا له وأطاعوه • فاحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة "

ويقال ان سبكتكين ينحدر من نسل يزدجرد الثالث آخر أباطرة فارس [٣] •

وسع سبكتكين ملكه من ناحية الهند فانشأ بها حكومة حاضرتها بشاور كما امتد نفوذه الى فارس باستيلائه على خراسان وماإليها •

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام : جـ ٣ : ص ٨٥

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ : جـ ٨ : ص ٢٤٧ •

(٣) موسوعة التاريخ الاسلامي : جـ ٨ : ص ٨٦ •

وتقرب اليه نوح الثاني ابن منصور وعينه واليا على خراسان فاتسع ملكه وثبت أركانه • ولم يكن يربط بالسامانيين الا رباط اسمي لم يقلل من مكانته • فكان سلطانه أوسع من سلطان نوح [1] وأصبح له نفوذ في بلاط السامانيين الى درجة انه صار اليه تعيين الوزراء في بلاط السامانيين [2] وقد استطاع سبكتكين بفضل انتصاراته التى أحرزها فى فتوحه ان يضع أساس الدولة الغزنوية •

ويذكر ابن الاثير ان سبكتكين استولى على الناحية القريبة من غزنه وبست الواقعة بين سجستان وهراه وان صاحبها استعان به على الثوار الذين استولوا على بلاده • غير انه لم يف بتعهداته له وماطله فهزمه سبكتكين واستولى عليها وأرغم واليها على الاعتراف به [3] وقد أتاحت هذه الانتصارات الفرصة لسبكتكين للاستيلاء على جزء كبير من بلاد الهند •

وكان سبكتكين قبل وفاته قد أوصى بالحكم لابنه اسماعيل وتجاوز ابنه الاكبر محمود الذى كان في نيسابور آنذاك • غير ان محموداً ثار لذلك عقب وفاة أبيه وحارب أخاه اسماعيل وانتصر عليه ثم أسرع فوضع نهاية للدولة السامانية التي كانت فى أيامها الاخيرة • وبذلك بدأ أزهى عصور الغزنويين [4] •

---

(١) العتبى : تاريخ اليميني : جا : ص ١٨١

(٢) تاريخ اليميني : جـ ١ : ص ٢٤١ •

(٣) ابن الاثير : الكامل : حوادث سني ٣٦٦ ـ ٣٦٩ هـ •

(٤) انظر : نظام الملك سياسة نامه : ص ١٢٥ •

محمود الغزنوي (يمين الدولة) (٣٨٨ ـ ٤٢١ هـ :ـ

تولى الحكم بعد انتصاره على أخيه اسماعيل والقى القبض عليه ويعتبر محمود بن سبكتكين من أشهر رجال هذه الدولة وقد استطاع بعد فترة من وفاة أبيه سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ان يبسط سلطانه على ملك السامانيين في خراسان وبلاد ماوراء النهر ٠ كما فتح بلاد الغور فيما بين غزنه وهراه ونشر الاسلام بين أهلها [١] ٠ كذلك عمل محمود الغزنوي على القضاء على نفوذ البويهيين في الري وبلاد الجبل ٠ كما حارب سنة ٤٢٠ هـ الاتراك الغزية أصحاب ارسلان بن سلجوق التركي وكانوا يقطنون بخارى [٢] ٠

ولم تقتصر أعماله على فتح البلاد في فارس بل توجه شطر بلاد الهند التي رأى فيها ميدان الجهاد الاكبر ٠ فغزاها سبع عشر مرة في مدى سبعة وعشرين عاما فيما يبين سنتي ٣٩١ ـ ٤١٧ هـ / ١٠٠٠ ـ ١٠٢٦ م ٠ وقد اصطبغت حملاته الي هذه البلاد بصبغة الجهاد الديني وكان يهدف من غزو بلاد الهند نشر الاسلام فيها فغزا سنة ٣٩٦ هـ مدينة الملتان [٣] ففزاها وفتحها عنوة وفرض على أهلها الجزية [٤]

---

(١) جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية : ص ٨٩

(٢) ابن الاثير : جـ ٩ : ص ١٣٠

(٣) الملتان : مركز مشهور للحجاج الهنود في جنوب البنجاب (معجم البلدان : جـ ٨ : ص ٢٠١)

(٤) ابن الاثير : جـ ٩ : ص ٦٤ ـ حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام : جـ ٣ : ص ٩٠

ازاء هذه الاخطار التي كانت تهدد ملوك الهند وأمراؤها بسبب هجمات محمود الغزنوى على أراضيهم اتفقوا على الوقوف في وجهه وتوجهت قواتهم لملاقاته بأرض البنجاب [1] ، الا ان قوات محمود الغزنوى أوقعت بهم الهزيمة واستولى على قلاعهم وغنم من الذخائر والجواهر والاوانى الذهبية والفضية الشيء الكثير وعاد الى غزنه بهذه الغنائم حيث عرضها في صحن داره [2] .

كانت هذه الانتصارات دافعا لمحمود الغزنوى لمواصلة هجماته على بلاد الهند . فاتجه الى الولايات الشمالية . وعندما وصلت جيوشة الى ياردان سنة ٤١٠ هـ - ١٠٢٠ م خاف (هاردتا) أحد ملوك الهند على حياته من عقوبة الله . ولذلك اعتقد ان خير سبيل لنجاته هو الدخول في الدين الاسلامي وترك عباده الاصنام [3] .

ووالى محمود الغزنوى فتوحاته في بلاد الهند حتى وصل الى سومنات سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٦ م وهناك وجد أمراء الهند قد حشدوا جموعهم للدفاع عن المعبد الاكبر فيها ، فاشتبكا في قتال انتهى بانتصار محمود الغزنوى واستولى على المعبد الذى كان له مكانه مقدسة عند الهنود ، وحطم الاصنام في هذه المعابد . ولذلك سمي محطم الاصنام وأخذ الى غزنة بعض أجزاء صنم سومنات وجعل منها درجات للسلم الذى كان يصعد عليه الناس الى مسجده العظيم بغزنه [4] . ثم زحف الى كشمير فأخضعها ودخل أكثر

---

(١) سرور : تاريخ الحضارة : ص ٩٠ .

(٢) انظر : ابن الاثير : جـ ٩ : ص ٧١ .

(٣) أرنولد : الدعوة الى الاسلام : ص ٢٨٨

(٤) انظر : جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية : ص ٩٠- موسوعة التاريخ الاسلامي : جـ ٨ : ص ٨٩ .

سكانها الاسلام ، ثم زحف محمود الغزنوى الى ما وراء النهر فخضعت له سمرقند وبخارى ومد سلطانه الى أصفهان وكانت بيد البويهيين ثم أحتل اجزاء من ايران.

فرح محمود الغزنوى بهذه الانتصارات كثيرا وأرسل الى الخليفة القادر بالله العباسي يطلعه على فتوحاته في الهند ويصف له الغنائم وما وجدوه في صنم سومنان [1] واتخذ محمود الغزنوى لاهور مقرا لحكومته بالهند وعين بها نائبا عنه ، واتسعت دولته حتى أصبحت تضم شمال الهند شرقا والعراق العجمي غربا وخراسان وطنجارستان وعاصمتها بلخ وجزءا من بلاد ما وراء النهر في الشمال وسجستان في الجنوب [2].

وحصل محمود بذلك من الخليفة العباسي بالاعتراف به وبسلطانه على الارمن التي يسطير عليها .وفي عهده كانت قوة السلاجقة قد اخذت في الظهور ولكن قوة محمود كانت في قمة مجدها فأحنى له السلاجقة ارؤوس ودخلوا في طاعته.

لقد بلغ الغزنوى في فتوحاته " الى حيث لم تبلغه في الاسلام راية ولم تتل به قط سورة ولا آية فدحض عنها أجناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع [3] وأقام بدلا عن بيوت الاصنام مساجد الاسلام وعن مشاهد البهتان معاهد التوحيد والايمان . فصارت الاطفال تهدد في بطالاتها باقدامه وتفرغ باقبال الويته وأعلامه [4].

وقد أطنب العتبي [5] في خصال محمود الغزنوى وسجاياه وأشاد باتساع رقعة مملكته كثيرا .

---

(١) وفيات الاعيان : ج٢ : ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٢) جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ص٩٢ حتى تاريخ العرب ص ٤٦٥.

(٣) وفيات الاعيان : ج٢ : ص ٨٥ .

(٤) العتبي : تاريخ اليميني : ج١ : ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٥) انظر العتبي : اليميني : ج١ : ص ٣٣ ، ٣٤ .

وقد نقل العتبي عن بديع الزمان الهمذاني (٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) أبياتا يصف فيها ما بلغته الدولة الغزنوية في عهد محمود الغزنوي وتحول السيادة والنفوذ من العنصر الفارسي الى العنصر التركي بقضاء محمود الغزنوي على الدولة السامانية [١]

مسعود الاول : (٤٢١ ـ ٤٣٢ هـ) :

لقد أوصى محمود الغزنوي بالحكم بعده لابنه محمد نائبه ببلخ ولقبه جلال الدولة ، ولم يوصي لابنه الاكبر مسعود بسبب ايقاع الوشاه به عند أبيه فلما مات محمود وصل محمد الى غزنة بعد موته بأربعين يوما وأغدق على قواده وعساكره فأطاعوه ٠ أما مسعود فلما بلغه خبر وفاة أبيه وكان بأصفهان توجه الى خراسان وكتب الى أخيه أن يقرره على بلاد التي فتحها بعض بلاد طبرستان والجبل وأصفهان ولكن محمود رفض هذا الطلب وانضم جنده الى مسعود لكبر سنه وكفاءته ، بل ثار بعضهم وقبضوا عليه وحبسوه وسملوا عينيه لانشغاله باللهو والترف واهمال شؤون الدولة ونادوا بأخيه مسعود سلطانا وذلك في ذى القعدة سنة ٤٢١ هـ أي بعد خمسة أشهر من تسلمه مقاليد الحكم [٢] ولقبه الخليفة العباسي القادر ناصر دين الله وظهير خليفة الله [٣] وسيد الملوك والسلاطين [٤] ٠

(١) انظر العتبى : اليميني : جـ١ : ص ٣٨٤ ـ ٣٨٦

(٢) ابن الاثير : جـ٩ : ص ا د ا

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام : جـ ٣ : ص٩٧

(٤) ابن الاثير : جـ٩ : ص ١٨١ ٠

عمل مسعود على فرض نفوذه في بلاد المشرق ، فاحتل مكران سنة ٤٢٢ هـ ثم كرمان التي مالبثت ان خرجت عن طاعته ، ثم سار الى خراسان لفتح العراق فانتهز "أحمد بن ينال تكين" نائب الفزنويين في لاهور الفرصة للاستقلال بهذه البلاد مما اضطر مسعود الى العودة الى غزنه وولى علاء الدولة بن كاكوية وكان البويهيون قد دكوا اصفهان فطلب من مسعود اقراره عليها مقابل دفع الجزية سنة ٠ وأقر دارا الانور في الري ابن قابوس بن شمير على جرجان وطبرستان ، وأرسل أباسهل الحمدوني لاقرار الامور في الري وتوجه مسعود الى الهند وفتح قلعة(سرسعي) الجبلية في جنوب كشمير والتي لم يستطع أبوه محمود من قبل ان يفتحها وأرغم نائبه أحمد بن ينال على الارتداد الى نهر السند حيث غزنه ثم عاد في السنة التالية الى هذه البلاد واحتل قلاعها وخلف ابنه مجدودا على بلاد البنجاب [1] .

وبعد ان تجاوز مسعود المشاكل التي واجهته في بلاد الهند تعرض لمصاعب خطيرة تمثلت بالخطر السلجوقي ومفازعة الغز له على السلطة .

أما الغز فقد طردهم من خراسان بعد حروب استمرت حوالي عامين (٤٢٩ - ٤٣١ هـ) أما السلاحقة فقد تزايد خطرهم فنبهوا هراه في سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م وبدأوا منذ سنة ٤٢٥ هـ يغيرون وبشكل منظم على خراسان لكن الامير مسعود هزمهم في سنة ٤٢٦هـ ٠ وبسبب انشغال

---

(١) ابن الاثير : حـ ١ : ص ١٧٠ - ١٧٢ - ١٨١

مسعود بغزو الهند فلم يستطيع التفرغ للقضاء عليهم فتزايدت قوتهم وطمعوا في أملاك الغزنويين وكرسوا جهودهم للاستيلاء على نيسابور ومرو منذ سنة ٤٢٩ هـ وعلى معظم بلاد خراسان باستثناء بلخ ٠ وازاء ذلك اضطر مسعود الى العودة من غزنة فحاربهم وهزم طغرل سنة ٤٣٠هـ وطرد السلاجقة والغز من خراسان ٠ على ان السلاجقة لم يلبثوا ان هزموا مسعودا سنة ٤٣٠ هـ ٠ وقد كان لانتصار السلاجقة على مسعود أثر كبير في نفسه فانسحب الى بلاد الهند أملا في جمع جيش كبير يحارب به السلاجقة [1] لكن الامور انقلبت على عقب اذ ان موالي مسعود ثاروا عليه بعد عبوره نهر السند ونهبوا خزائنه وقبضوا عليه وعيوا مكانه أخاه (محمد) الذى كان بصحبته مسمولا بعد ان قبض عليه ٠

وبقي مسعود ومن معه من العسكر ٠ وانتهت هذه الحروب الداخلية التي قامت بين جند مسعود وبين أنصار محمد بقتل مسعود وقد وصف ابن الاثير الامير مسعود بقوله [2] : أنه كان شجاعا كريما ذا فضائل كثيرة ومحبا للعلماء ٠ فصنعوا له التصانيف الكثيرة في

---

(١) ابن الاثير : جـ ٩ : ص ١٨٧

(٢) ابن الاثير : جـ ٩ : ص ١٨٢ ٠

العلوم . وكان كثير الصدقة والاحسان الى اهل الحاجة . قيل انه تصدق مرة في شهر رمضان بألف الف درهم ، وانه عمر كثيرا من المساجد . واجزل العطاء للشعراء ... وكان يكتب خطا حسنا ، وقد امتد نفوذه على اصبهان والري وهمذان وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم وكرمان والهند وغزنة وبلاد الغور والهند .

وبعد مقتل مسعود رجع اخوه محمد الى غزنة وبعث الى ابن اخيه مودود بن مسعود بخراسان يبين له ان لا دخل له بقتل ابيه . فأجابه بكلام يدل على الحزن الشديد لمقتل ابيه فقال " اطال الله بقاء الامير القاسم (محمد بن محمود بن سبكتكين) .

ورزق ولده المعتوه احمد عقلا " بعيش به ، فقد ركب امرا عظيما واقدم على اراقة دم ملك مثل والدي الذي لقبه امير المؤمنين سيد الملوك والسلاطين . وستعلمون في اي حتف تورطتم واي شر تأبطتم وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون [1].

ثم توجه مودود بن مسعود من خراسان الى غزنة وحارب عمه محمدا بالقرب من دينور على طريق كابل وشاور وانتصر على عمه ودخل غزنة وقتل جميع اولاد عمه محمد عدا واحدا لانه غضب لمقتل عمه . كما قتل مودود كل من ظن انه اشترك بالمؤامرة وكان ذلك سنة ٤٣٢هـ . خاف الغز السلاجقة من انتصارات مودود . فثار عليهم اهالي البلاد التي خضعت لهم ودخلوا في طاعة مودود . فاصبح قويا لا يعتقد بأن احدا ينافسه الا اخاه

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ لاسلام : ج٣ : ص٩٩ .

مجدودا الذي كان واليا على اقليم البنجاب ، منذ سنة ٤٢٦هـ ٠ تمرد مجدود على حكم اخيه واعلن استقلاله في لاهور والمولتان ، ثم سار على رأس جيش كبير متجها الى غزنة ، غير ان الموت عاجله في الطريق فمات بعد ان وصل الى لاهور بثلاثة ايام في ذي الحجة سنة ٤٣٢/ آب ١٠٤١م [١].

وعلى مر السنين اصبح السلاجقة يشكلون خطرا يهدد الدولة الغزنوية فاستطاع الامير الب ارسلان بن داود السلجوقي ان يهزم جيش مودود الغزنوي سنة ٤٣٥هـ رغم ان بعضا من قطاعات جيش مودود تمكنت من القضاء على جماعة من الغز بنواحي (بست [٢]) ٠

وقد حاول ثلاثة من ملوك الهند محاصرة لاهور حاضرة الغزنويين في هذا البلاد ولكن مودودا هزمهم ٠

ونتيجة لهذه الانتصارات فقد استعاد الغزنويون هيبتهم في بلاد الهند الشمالية الى حين ٠ وعمل مودود على استرداد البلاد التي استولى عليها السلاجقة في عهد ابيه ، وحصل على مساعدة ملك الترك وصاحب اصبهان ، ولكن الموت عاجل مودودا اذ انه مرض اثناء مسيرة سنة ٤٤١ هـ لحرب السلاجقة فعاد الى غزنة ومات فيها في ٢٠ رجب سنة ٤٤١هـ عن عمر يناهز التاسعة والعشرين بعد ان حكم تسع سنوات وعشرة اشهر [٣] ٠

فحال موته دون القضاء على السلاجقة وبعد وفاة مودود تولى ابنه مسعود الحكم ولكنه لم يبق فيه سوى خمسة أيام ثم تقلد السلطنة عمه ابو الحسن علي بن مسعود الاول وقد انتهز عبدالرشيد بن محمود الغزنوي

---

(١) ابن الاثير : ج٩ : ص ١٨٧ ٠

(٢) ابن الاثير : ج٩ : ص ١٩٢ ، ١٩٣ ٠

(٣) ابن الاثير : ج١٠ : ص ٢٠٨ ٠

هـذا الاضطـراب الـذى سـاد الدولـة الـغزنويـة بـعد مـوت مودود فدعا الجنـد الى طاعتـه فأجابـوه وتوجهوا الى غزنـة فهـرب على بن مسعـود واستقـر الامـر لـه ، وتلقـب عـز الدولـة ، وسيـف الدولـة ، وشمس دين اللـه وقيـل ايضا جمال الدولـة [1].

وقـد حـاول عبد الرشيـد على طـرد السلاجقـة من خراسـان بمساعـدة طغرل زوج اخـت مودود وحاجبـه الـذى بعثـه الى هـذه البـلاد ، ولمـا ادرك طغرل قوتـه توجـه الى غزنـة وحـاول خـداع عبـد الرشيـد فاعتصـم هـذا الاميـر بقلعتـه في غزنـة ولكـن طغـرل استطـاع القبـض عليـه وقتـلـه سنـة ٤٤٤هـ واحتـل بـلاده وتـزوج ابنـة مسعـود الاول ولكـن تصرفـات طغـرل اغاضـت القواد ممـا جعلهـم يتحالفـون مـع نائـب الغزنويـين فى الهـنـد ومـع زوجـة طغـرل ، فدخـل القـواد على طغـرل وقتلـوه وعينـوا فـروخ شـاه مكانـه • وقـد حـارب السلاجقـة عـدة سنـوات ، وفى سنـة ٤٥٠هـ ثـار عليـه قـواده ومماليكه واتفقـوا على قتلـه وهـو في الحمـام • ولكنـه نجـا بمساعـدة بعض انصـارة •

ويبـدو ان هـذه الحادثـة اثـرت فى نفسـه فلـم يعش طويـلا اذ مـات فى شهـر صفـر سنـة ٤٥١هـ وتولـى السلطنـة بعده اخـوه ابراهيم بن مسعـود (٤٥١ ـ ٤٩٢ هـ) فعقـد هـذا الصلـح مع السلاجقـة وفتـح كثيـرا من القـلاع فى الهـنـد [2].

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام : ج٣ ص ١٠١ •

(٢) ابن الاثير : ج١٠ : ص ٢ •

نظم الغزنويين وحضارتهم : (نظمها وحضارتها) :-

وصلت الدولة الغزنوية أوج قوتها في عهد يمين الدولة محمود الغزنوى بحكم مملكة واسعة جدا ، وحصل على مال كثير من غزواته وبخاصة في بلاد الهند التي كانت معابدها حافلة بالثروة ٠ ولذلك عمل محمود الغزنوى على ان يجعل من غزواته عاصمة أوسع مملكة في ذلك الوقت ٠ فقد اهتم ببناء القصور والمساجد ، وسار على نهجه اتباعه ٠ ويذكر انه أنفق أموالا طائلة على بناء مسجده الذى لم يكن هناك مايضارعه في ذلك الوقت ٠

ووصف محمود الغزنوى بالعدل بين الرعية ، كما عرف عنه حبه للعلماء والتقرب منهم ٠

ويقول الدكتور أحمد العبد سليمان (١) : " فما يلفت النظر ان محمودا كان حاميا للعلوم والاداب والفنون الجميلة بقدر ماكان قائدا ورجل سياسة وقد اجتمع في صالونه بغزنه من الشعراء عنصرى وعسجدى وفرضي والفردوس وغيرهم من أدباء العصر وعلمائه بحيث عجزت كل العواصم عن منافسته في ذلك وازدانت غزنه في ذلك العصر بما لامثيل له في غيرها من القصور والمساجد والقنوات والمباني الفخمة والآثار النافعة لان محمودا عرف كيف يفيد من آثار الهند العمرانية بنفس القدرة التي عرف بها كيف يغير عليها " ٠

وكان السلطان محمود يستدعي العماء والشعراء الى بلاطه في غزنه من أمثال عنصرى الشاعر البيروني والعالم والمؤرخ ٠ كما استدعى

(١) أحمد سعيد : تاريخ الدول الاسلامية : ج ٢ ، ص ٥٩٠ ٠

الفردوسي الذي بذ أقرانه كثيرا .

ففي بلاطه نظم الفردوس ملحمته الشهيرة الشاهنامه (كتاب الملوك) وكانت (٦٠) ألف بيت من الشعر . وتدور حول أمجاد (أربع دول منها : البارثيون والساسانيون ودولتان خرافيتان مأخذوتان من أساطير الادفستا [١]

وأظهرت هذه الملحمة اهتماما زائدا بقصص البطولة والفروسية وكانت مصدر الهام للعديد من شعراء الفرس المتأخرين ، كما كانت مصدر الهام لبعض الشعراء الغربيين ..... ونتيجة للشهرة التي حظيت بها هذه لملحمة في ايران فانه قلما يوجد من لم يحفظ منها قليلا وكثيرا حتى الآن . ويذكر البعض ان محمود الغزنوى كان مشغولا بالاعمال الحربية ومهتما بتوسيع دولته ، ثم ان نفورا حدث بينه وبين الفردوسي بسبب اهتمام الفردوسي بالمبالغة في مدح الفرس بني قومه في ملحمته الشاهنامه وانه يفضلهم على الاتراك الذين ينحدر منهم الغزنوى ولعل ذلك هو الذى جعلت أعطية السلطان المالية لهذا الشاعر قليلة فوزعها على الناس استخفافا بها . وعندما علم السلطان بذلك طلبه الا انه هرب يلجأ هنا وهناك . ويبدو ان السلطان الغزنوى لم يعرف قدر الفردوسي الا في أواخر حياته ولكن بعد فوات الاو ن . [٢]

وقد كتب معاصرى الفردوس مؤلفاتهم باللغة العربية كما ان الحروف العربية حلت محل الحروف الفارسية . وجاء بعد الفردوسى من العلماء من كتب باللغتين العربية والفارسية مثل السعدى . ووجد بين العرب من عرفوا اللغة الفارسية واهتموا بها [٣] .

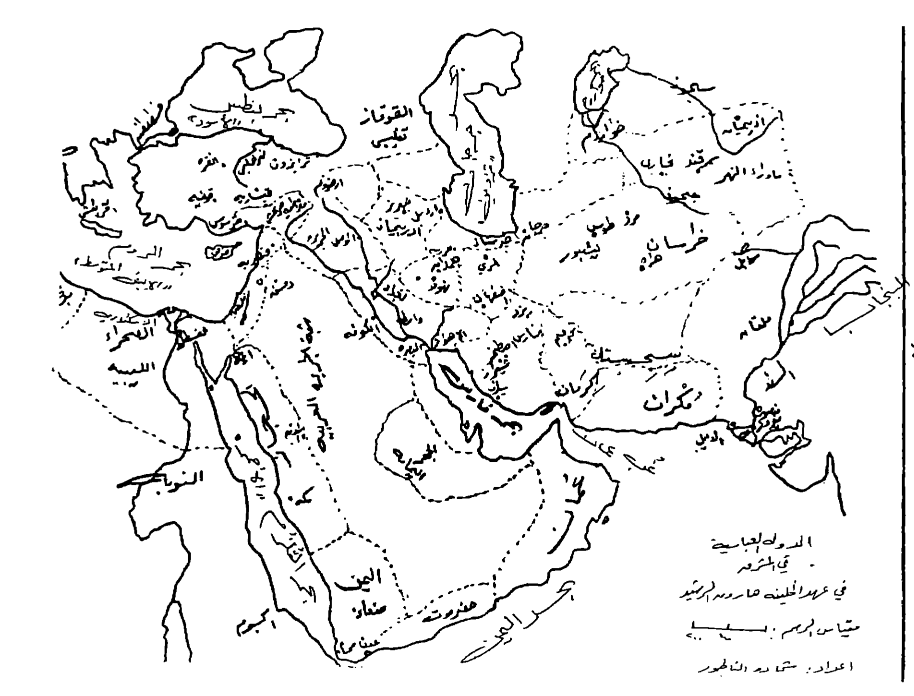
(١) أحمد شلبي : موسوعة تاريخ الحضارة : ج ٨ ، ص ٩٠

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي : ج ٨ ، ص ٩٠ .

(٣) ايران : ماضيها وحاضرها :ص ٥٥ ـ ٥٦ ـ موسوعة التاريخ لاسلامي ج٨،ص ٩١ .

واهتم بالادب بعد محمود الغزنوى في غزنه أخوه نصر في نيسابور وبخارى في عهد السامانيين ثم في عهد الغزنويين وقصور العلويين والزبيريين في طبرستان وقصور ملوك خوارزم في مدينة (خيوة) اضافة الى قصر الصاحب ابن عباد وزير البويهيين في اصفهان ٠ وكان أبوريحان البيروني من مشاهير العلماء ٠ ٠ وقد عاش في رعاية أمراء خوارزم في (اخيوه) ثم عاش في كنف قابوس شمس المعالي في طبرستان كما عاش أخيرا في رعاية وكنف السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى وفي كل أفراد أسرته من بعده [1] ٠

(1) تاريخ الادب في ايران : ص ١١٦ ـ ١١٧ ٠



الدولة العباسية
في المشرق
في عهد الخليفة هارون الرشيد
مقياس الرسم
القوقاز
تفليس
ما وراء النهر
سمرقند
خراسان
نيسابور
مكران
سجستان
كرمان
اليمن
صنعاء
حضرموت
عمان
اليمامة
مكة
شبه الجزيرة العربية
النوبة
الصحراء الليبية
بحر العرب


خريطة
الدويلات الإسلامية في المشرق
(القرن الحادي عشر الميلادي)
عند بدء الحروب الصليبية
مقياس الرسم
البحر الأسود
القسطنطينية
الروم
البحر المتوسط
الإسكندرية
الدولة الفاطمية
تفليس
بغداد
الكوفة
البصرة
الخليج الفارسي
كرمان
مكران
البويهيون
شيراز
أصفهان
جرجان
الري
القرامطة
الترك
سمرقند
بخارى
بلخ
خراسان
غزنة
نيسابور
الغزنويون

الباب الرابع

السلاجقة

- في القراق وايران
- في الاناضول والشام

....

....

...

..

.

السلاجقة :-

نسبهم :-

ينتسب السلاجقة الى عناصر من الاتراك الى جدهم الذى كان يدعى ب سلجوق بن تفاق ، الذى كان رئيسا لمجموعة من الاتراك يسكنون فى بلاد ما وراء النهر بالقرب من مدينة بخارى ، وكان هؤلاء باعداد هائلة منهم الاتراك العثمانيون وسلاجقة الروم فى اسيا الصغرى ثم امتد نفوذهم الى سوريا ومصر وشمال افريقيا .

وبذلك يعتبر سلطانهم اكثر ازدهارا وملكهم اعظم رقعة من سلطة الغزنويين او غيرهم من الدول التي استقلت عن الدولة العباسية ، كما ان للسلاجقة دور عظيم في تجديد قوة الاسلام واعادة تكوين وحدة الدولة الاسلامية، وقد ظهر في عهدهم افظع الحروب ، والهجمات لخارجية ضد الدولة وهي الهجمات الصليبية من الغرب والمغولية من الشرق .

كان سلجوق بن تفاق زعيما لاحد فروع الترك حيث خرج من منطقته خوف على حياته من ملك الترك على رأس جماعته الى بلاد الاسلام ووافى به، ومن هناك اخذ يهاجم بلاد الاتراك الذين كانوا لا يزالون على الكفر، وقد استطاع سلجوق ان يطرد عمالّ ملك الترك من مناطق السامانيين ليردها الى الديار الاسلامية وعاش سلجوق مائة وسبع سنين في جند حيث توفي هناك ليترك الحكم لابنائه طغرلبك واخيه داود اللذين قادا جماعتهم الى بخارى حيث خشي اميرها منهم فاساء جوارهم (1) فعادوا الى جند وهناك بدأ الصراع

---

(1) ابن الاثير :الكامل فى التاريخ ج٩ ص ١٧٦ .

مع الدولة الغزنوية : الا ان الغزنويين كانوا مشغولين بالقتال مع الهنود مما اتاح للسلاجقة ان يؤسسوا دولتهم ومن اشهر سلاطينهم في تلك الفترة طغرلبك حيث استولى في سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) على مرو عاصمة خراسان ولقب نفسه ملك الملوك ، كما استطاع ان ينتصر على جيش الغزنويين في معركة حاسمة بالقرب من مدينة سرخس واستطاع السلاجقة بعد ذلك السيطرة على بلاد خراسان [(١)] واستولى على نيسابور حيث ذكر اسمه على المنابر ولقب بالسلطان الاعظم وكان ذلك في سنة ٤٣٢هـ . وبعدها اختلف الغزنويون مما اتاح للسلاجقة السيطرة على خوارزم وجرجان وطبرستان وهمذان.

وفي سنة ٤٣٣ استولى السلاجقة بقيادة طغرلبك على بلاد الديلم وكرمان وقد دانت له مدينة اصبهان . ثم استطاع طغرلبك ان يسيطر على ديار بكر من اخيه ابراهيم .. ثم عقد هدنة مع امبراطور الروم وعمر مسجد القسطنطينية وقد حسن طغرلبك علاقاته مع الخليفة العباسي في بغداد حيث ارسل له " عشرة الاف دينار عينا واعلاقا نفيسة من الجواهر والثياب والطيب وغير ذلك ، وارسل خمسة الاف دينار للحاشية والفي دينار لرئيس الرؤساء [(٢)] .

وعلى اثر ذلك امر الخليفة بذكر اسم طغرلبك في الخطبة ونقش اسمه على السكة (العملة) ومن ثم استاذن **طغرلبك الخليفة ان يدخل بغداد فأذن له سنة ٤٥٥هـ١٠٠م واستقبله في القصر وفوض له وقلده ولاية الدولتين المشرق والمغرب**

كان اول حادث واجه طغرلبك هي ثورة البساسيرى الذى قام بحركته داعيا للخليفة الفاطمي المستنصر بالله والذى كان قد تغلب على جيش الخليفة العباسي

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ٩ ص ١٧٠ .

(٢) المصدر نفسه جـ٩ ص ٢١٦ ، ٢٢٨ .

سنة ٤٤٩هـ اى قبل تولي طغرلبك بغداد بسنتين ، وفي نفس الفترة تقرب البويهيون من الفاطميين ليحولوا دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين اخذوا يهددون سلطان البويهيين . كما تقرب الخليفة من امراء العرب المتواجدين في الجزيرة ، وقد استطاع البساسيرى بمساعدة هؤلاء الانتصار على الخليفة العباسي في موقعة سنجار ، واستغل البساسيرى حركات عديدة ضد العباسيين واختلاف طغرلبك مع اخيه ابراهيم ليحتل بغداد عام ٤٥٠هـ ويقتل الوزير ويقبض على الخليفة ويسجنه ، فاصبح البساسيرى الحاكم الفرد لكل المنطقة ، وقد اجبر الخليفة القائم على الاعتراف بسلطانه (١)

واصبح الخليفة مسلوب الارادة ، وان جميع الامور بيد البساسيرى الذى كان يميل الى الفاطميين ، وقد خشي الخليفة العباسي ان تتحول الخلافة في بغداد الى الفاطميين ، مما حدا بالقائم ان يستدعي السلاجقة الاتراك بقيادة طغرلبك ليخلصوه من تسلط البساسيرى وانصاره ، فاعد طغرلبك عدته مدعيا انه يريد الحج واصلاح طريقة وازالة الحكم الفاطمي (٢) فاتجه نحو بغداد ولما وصل الى حلوان هاجت بغداد وماجت وانتثر عقد نظامها ، واجفل الناس الى غريبها ، وعسكر الاتراك بظاهرها ، وسمع الملك الرحيم بقرب طغرلبك من بغداد ، فاصعد من واسط اليها ، وفارقه البساسيرى لمراسلة وردت من الخليفة القائم ، خوفا من الملك الرحيم الذى كان بينه وبين الخليفة العباسي معاهدات . وبهذا افسح هذا الاختلاف الطريق الى طغرلبك لدخول بغداد . حيث كان الملك الرحيم البويهي قد دخل الى بغداد مظهرا اخلاصه للخليفة،

---

(١) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ج٩ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج٩ ص ٢٢٧ .

الا انـــه اشـــار عليـه بان يديـن بالطاعـــة لطغرلبـك الذي دخـل بغـداد دون عنا • [1]

وكان من اسبـــاب هزيمـة البسا سيـرى هـو قيـام المنافسـة بيـن العــــرب والترك بجيشـه ، وعـودة طغرلبـك الى بغـداد بعـد ان قضى على ثـورة اخيـــــه ابراهيم ، وبعـودة طغرلبك كـان القضـا ء النهائي على البسا سيـرى حيث قبـــض عليه وقتـل وبذلـك انتقلـت السيطـرة والتسلط من يـد البويهيين الى يـد الاتراك السلاجقـة العسكريين الذين استأثـروا بهـا ولم يكـن للخلفـا • من الحكم شـــئ سـوى ذكـر اسمهـم في الخطبـة ونقشـه على السكـة ، كمـا كانـوا يقضـون اوقاتهـم في بنـا ء القصـور وترميمهـا • ويذكـر ان العلاقـة بين السلاجقـة والبيت العباسي علاقـة حسنـــة كانـت افضـــل منهـا في العصـر البويهي •

ورغم ان السـن قـد تقدمـت بطغرلبـك حيث بلـغ السبعين فان اطماعـــه لم تقف عنـد حـــد ، • غـادر بغـ داد وهو في هـذا السـن نحـو بـلاد الري ليسيطـر عليهـا الا انـه مرض وتوفي فتولـى الحكـم بعده ابن اخيه سليمـان بن داود الـــب ارسـلان :ـ عندمـا تولـى سليمـان بـن داود الحكم ثـار عليه اخـوه الــــب ارســلان وهزمـه ، واستطـاع ان يسيطـر علـى العرش بمساعـدة وزيـره نظـــام الملـك ، وكان هـذا الوزيـر من اشهـر الوزرا • الذين انجبتهم بـلاد الفرس الـــذى اشتهـر بحكمتـه وحزمـه •

كان عصـر الب ارسـلان حافـلا بجلائـل الاعمـال ، وكـان من اشهـرهــــا سيطرة الدولـــة على الجزء الشمالي الشرقي من الدولـــة الاسلاميـة ، كما هــــزم البيزنطيين في اسيا الصغري سنـــة ٤٥٦هـ • وقمع الثـورة التى قامـت في فـــارس

---

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج٩ ص ٢٣٨ •

وكرمـان وفي سنـة ٤٧د٤ بـدأ ببنـاء المدرسـة النظاميـة ، واقطـع البـلاد الـى افـراد البيت السلجوقـي [1] كمـا احتـل حلـب ومكـة والمدينـة من يـد الفاطميين ، ومن اشهـر انتصاراتـه على الجيش البيزنطـي سنـة ٤٦٣هـ في معركة ملازكـرد ، حيث كـان عـدد جيش البيزنطيين مـا يزيـد على مائتي الـف مقاتـل ، وان جيش السلاجقـة لم يـزد علـى ٠٠٠ر١د مقاتـل ، وقـد اسـر امبراطـور الـروم في تلـك المعركـة ، الا ان الـب ارسلان اطلق سراحه مقابـل فدية مليـون ونصـف دينـار وان يكـون نائبـه في بـلاد الـروم ويرسـل اليه الجند لمساعدتـه حين يحتـاج اليهـا ، وقـد استطـاع بدهـا ان يسيطـر علـى القدس والرملـة من الفاطميين .

اراد الب ارسلان ان يسيطر علـى بـلاد مـا وراء النهـر فجهـز جيشـا تعـداده مائتي الـف مقاتـل ، وبينمـا كان يحاصـر احدى القلاع جرح غيلـة ومـات سنـة د٤٦هـ ودفن في مـرو وكـان عمـره اربعين سنـة ، وكـان قد اوصى ان يكـون ابنـه ملكشـاه سلطأنـا بعـده .

ملكشـاه :ـ ٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ .

اتسع ملكـه اتساعـا عظيمـا من حـدود العين شرقـا الى اقاصي بـلاد الشام غربـا ومن جنوب روسيا شمالا الى اليمن جنوبـا . تولـى الوزارة في عهـده نظام الملك وزيـر ابيـه .

بـدأ عهـد ملكشـاه بالاظطراب باطـراف دولتـه ، حيث ثار صاحب سمرقند فسيطر على ترمـذ ، كما ثار عم ملكشاه بكرمـان مطالبـا بالسيطرة على السلطة، فلاقـاه بمعركة قرب همذان ، فانتصـر عليه ملكشـاه وقتلـه وسمـل عيـون

---

(1) انظر ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص١٩ .

ابنائه ، وتقديرا لوزيره اقطعه طوس واسماه اتابك ومعناه الامير او الوالد او مربي الامير [1] .

في عهد ملكشاه توفي عدد كبير من عظام رجال الحضارة الاسلامية ابن سينا الطبيب الفيلسوف ، ومهيار الديلمي الشاعر ، وابو الحسن البصري شيخ المعتزلة ، وابو الحسن الماوردي قاضي القضاة وصاحب كتاب الاحكام السلطانية ، وابن حزم صاحب كتاب الفصل في الملل والنحل والخطيب البغدادي صاحب كتاب تاريخ بغداد ، وابن رشيق صاحب كتاب العمدة ، وابن عبدربه مؤلف كتاب العقد الفريد المشهور في عالم الادب والتاريخ .

اشتهر ملكشاه بانجازاته الحربية بالاضافة الى تشجيع العلم ونشر الحضارة ، وحفر الترع واقامة الجسور وتحصين المدن وتشجيع دراسة علم النجوم والعلوم الدينية والعقلية بمعونة وزيره نظام الملك الذى اسس المدارس النظامية في بغداد ونيسابور ، كما اسس المدرسة الحنفية ببغداد . كما اسس ملكشاه مرصد اشتغل فيه من اعظم علماء الفلك المسلمين عمر الخيام وميمون الواسطي .

استطاع ملكشاه بمعاونة وزيره نظام الملك ان يكون اعظم دولة سلجوقية من حيث سعتها وتقدم العلوم فيها ، وسيطرة على المجاورين حتى ان امبراطور الروم قد دفع الجزية لهم وكان ملكشاه " احسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل " [2] وكان يجلس للمظالم ويقضي بين الناس بالعدل، وكان يستطيع ان يدخل اى فرد من رعيته الى مجلسه ليعرض ظلامته ، وكانت الطرق آمنة في عهده والقوافل تسير من بلاد ما وراء النهر الى اقصى بلاد

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص ٣٧١ ـ ٣٧٤ .

الشام في امن وطمأنينة [1] .

الوزير نظام الملك :-

كان نظام الملك الساعد الايمن لملكشاه ومدبر ملكه ومستشاره ، حتى كان كل شئ بيد نظام الملك ، وكان له اثنا عشر ولدا يقبضون مع ابيهم زمام الدولة ، وقد قتلوا نتيجة المؤامرات التي حيكت ضدهم من حسادهم ، رغم ما قدموه من خدمات جليلة للدولة .

كان نظام الملك من ابناء الدهاقين ، تعلم العربية وعرف بعلو الهمة، واشتغل بالعلم وتفوق فيه ، وكان يطوف بلاد خراسان ، واتصل بحاكم بلخ ، فظهرت كفايته وامانته ، فاوصى به ألب ارسلان ، فاسند اليه اعماله ، ثم اصبح وزيرا له وعهد اليه بتنشئة ابنه ملكشاه ، وكان نظام الملك عالما دينا عادلا حليما كثير العفو طويل الصمت . وكان مجلسه حافلا بالفقهاء وائمة المسلمين واهل الخير والصلاح ، وقد اشتهر ببناء المدراس في البلاد وخصص لها النفقات العظيمة ، واسقط المكوس والضرائب ، وكان يقرب اليه الفقراء ويطعمهم معه .

قتل نظام الملك عام ٤٨٥هـ بعد ان تولى الوزارة لألب ارسلان ملكشاه نحوا من ثلاثين سنة وقد توفي ملكشاه بعده بخمسة وثلاثين يوما وبموته انتهى العصر السلجوقي الاول الذي يمكن ان يسمى العصر الذهبي للدولة السلجوقية او عصر نظام الملك وانحلت الدولة ووقع السيف [2] .

---

(١) المصدر نفسه ج٤ ص ٣٧٣ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص٧٥ ـ ٧٦ .

تولى بعد ملكشاه عدد من السلاطين كان اشهرهم محمود ناصر الدين بن ملكشاه الذى حكم سنتين د ٤٨ ـ ٤٨٧هـ وكان طفلا ان ان امه استطاعت ايصاله الى السلطنة، لكنه مرض بالجدرى ليتولى اخوه الاكبر بركيا روق بن ملكشاه الذى تغلب على اخوته وتولى السلطنة سنة ٤٩٧هـ وفى هذه الفترة بدأ الصليبيون بغزو الشرق ، الا ان بركيا روق لم يطل به المقام حيث مرض وتوفى سنة ٤٩٨هـ وهو في الخامسة والعشرين من عمره بعد ان اوصى لابنه ملكشاه الثانى ، الا ان الحروب بين بركيا روق واخيه محمد قد اديا الى تأخر الدولة وبداية انهيارها .

وكان ملكشاه الثاني طفلا ، حيث استطاع عمه محمد ان يتغلب عليه ويسمل عينيه حيث تولى محمد السلطنة ، وفي عهد محمد هذا تولى آق سنقر والد عماد الدين زنكي الموصل ، وكان المؤسس لاتابكية الموصل كما سنرى فيما بعد .

بعد وفاة محمد بن ملكشاه تولى السلطنة ابنه محمود وكان عمره اربعة عشرة سنة . وكالعادة ثار ضده اخوه طغرل وعمه سنجر ، واستطاع ان يتغلب سنجر على ابن اخيه محمود الا انه عفا عنه وابقاه سلطانا ، وقام بين السلطان والخليفة صراع انتصر فيه السلطان وجنح الخليفة الى السلم واعتذر له السلطان واتصف عهد السلطان محمود بعدة اخطاء ادت الى ضعف السلطنة ، وقلة اموالها ، وكان امراء دولته يطمعون فى اموال الدولة ، وزادوا بالضرائب التى اثقلت كاهل الناس ، فكره الناس حكم آل سلجوق وتبرموا منه ، وقد قام الصراع بين افراد البيت السلجوقى مما اضعف سلطتهم وبعدها انتهى عهد السلاجقة العظام حوالي سنة ٢ددهـ بعد وفاة سنجر (١) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص٨٥ .

سلاجقة آسيا الصغرى :-

وسع السلاجقة سلطتهم في آسيا الصغرى ، حيث سيطروا على مدن سيواس وقيصرية ، وقد قام هؤلاء بدور عظيم في مقارعة الصليبيين ، وقد اندمج جميع السلاجقة في اسيا الصغرى ليؤسسوا سلاجقة الروم وقد شملت جميع انحاء ارمينيا التي يسطروا عليها سنة ٤٣٤هـ - ١٠٤٢م ، كما اجتاح السلاجقة كبادوكيا وملطية ، وفي عهد السلطان ألب ارسلان اخذ السلاحقة بسياسة حديدة وهو احتلال ما يستطيعون من الاراضي البيزنطية وضمها الى الدولة الاسلامية ، فاستولوا على عاصمة ارمينية التي كانت مركزا هاما لقوة الدولة البيزنطية في الاقاليم الشرقية من آسيا الصغرى (1) لم يستطع الامبراطور البيزنطي من الوقوف امام الهجمات الاسلامية المتتالية، الا ان احد اباطرة الروم استطاع استرجاع اسيا الصغرى ، وعندما استطاع السلطان آلب ارسلان من تصفية المشكلات الداخلية في دولته ، وعاد من ايران، قرر اتباع سياسة الجهاد العام ضد الدولة البيزنطية ، فحاول الامبراطور رومانوس الرابع مهاجمة السلطة وقصد بلاد الاسلام ، فوصل الى مدينة ملازكرد سنة ٤٦٤هـ ٧١ ١٠م وكان قد استولى عليها السلطان ألب ارسلان في العام السابق ، فتجهز السلطان لملاقاة الامبراطور فجهز جيشا عدده خمسة عشر ألف مقاتل وكان عدد الروم مائتي الف مقاتل فكانت معركة ملازكرد الشهيرة وخطب الب ارسلان مشجعا جنوده . " انني اقاتل محتسبا صابرا فان سلمت فنعمة من الله تعالى وان كانت الشهادة فان ابني ملكشاه ولي عهدي ،

---

(1) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص٣٧ - ٣٨ .

وساروا " [1] .

ولما كانت ساعة اللقاء طلب من جنده من اراد العودة فليرجع ولبس البياض وقال ان قتلت فهذا كفني .

ويظهر ان ألب ارسلان كان يخشى على جنده من كثرة البيزنطيين الا ان الاعداد النفسي لعسكر المسلمين وتجانسهم كان له الاثر الاكبر في رجحان كفة المسلمين ، وبعد بدء المعركة بفترة وجيزة ، وقتل عدد كبير من الروم انهزم باقي الجيش تاركين الامبراطور في وسط المعركة للأسر ، وهذا ما يؤكد ان النصر لا يرتبط بالعدد او العدة فقط وانما بنوع الرجال المخلصين . كان الانتصار في معركة ملازكرد اكبر كارثة حلت بالامبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الحاد عشر الميلادى ، فقد تبدد جيشها وقوامه مائتي الف مقاتل امام قوة قليلة من المسلمين لم تزد عن خمسة عشر الف مقاتل ، وبعد هذه المعركة بدأ ضغط المسلمين على اوروبا . وقد عفا السلطان عن الامبراطور مقابل فدية ، وان يطلق اسر المسلمين عند البيزنطيين وان يكون الامبراطور رومانوس نائبا عن السلطان في حكم القسطنطينية ، الا ان ميخائيل السابع وثب على رومانوس وقتله سنة ١٠٧٨م وقتل ألب ارسلان ايضا في حرب في ما وراء نهر جيحون سنة ١٠٧٢م . فخلفه ابنه ملكشاه الذى استطاع تثبيت دعائم دولة السلاجقة ، واخذوا يتوسعون في آسيا الصغرى ، ودخلوا في حلف مع نقفور حاكم اقليم عمورية ، الذى اعلن نفسه امبراطورا ضد ميخائيل السابع ، فاستغل السلاجقة هذا الظرف ليستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى مثل نيقية ، ونيقوميديا ، وخلقدونيا والبسفور ، وهي اول مرة يسيطر فيها السلاجقة على هذه المناطق ، واعلنوا حمايتهم لهذه المدن ، وعقد

---

(١) المصدر نفسه جا ص٦٥ .

نقفور الثالث مع المسلمين حيث تعهد سليمان بن قتلميش الحاكم السلجوقي لتلك المنطقة بمساعدته مقابل اعطائهم نصف المدن التي يسيطر عليها ، ولهذا بدأ المسلمون نشاطهم الحربي ضد الدولة البيزنطية ، ورفض سليمان الخروج بعد ذلك من نيقية واتخذها عاصمة له في الاناضول حتى حلت محلها قونية ، واحتل السلاجقة نيقوميديا ، ثم احتل السلاجقة ازمير الواقعة على بحر ايجة ، وقام اميرها بانشاء اسطول مكنه من غزو الجزر الكبيرة القريبة من شواطئ آسيا الصغرى ، وبذلك صارت الدولة السلجوقية هي صاحبة السيادة في الاناضول من الفرات شرقا وحتى بحر مرمرة غربا ، وظلت آسيا الصغرى دون سلطة سياسية موجدة تشكل امارات سلجوقية ومجزأة حتى قيام سلطنة قونية سنة ١٠٩٢م على يد قلج ارسلان الاول بن سليمان واخذت المدن الكبرى في آسيا الصغرى تستسلم واحدة بعد اخرى للاتراك السلاجقة الذين وجدوا ترحيبا من عبيد الارض الذين امر سليمان بن قتلمش بتحريرهم من العبودية التي عاشوها مع كبار الملاك البيزنطيين ، فازداد الحال صعوبة على بيزنطة ، اذ لم تتمكن من استرداد هذه البلاد بسبب قوة السلاجقة وتمسكهم بالدين الاسلامي لدرجة جعلت الغرب المسيحي يفكر جديا فيما يفعلون لدرء الخطر الاسلامي الجديد وكيفية مواجهته .

السلاجقة في الشام .

في سنة ٤٧٠ هـ سار الامير السلحوقي تاج الدولة ابو سعيد تتش بن السلطان الب ارسلان وشقيق ملكشاه حيث اقطعه الشام وما يفتحه في تلك النواحي [1] . فاتى حلب وحصرها ولحق اهلها مجاعة شديدة ، وكان معه جمع

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص ١١١ .

كبير من التركمان ، فارسل اليه اقسيس حاكم دمشق يستنجد به ويعرفه ان القوات الفاطمية حاصرت دمشق فسار تتش الى دمشق تاركا حصار حلب واستولى على دمشق سنة ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م حيث وجد انصارا للسلاجقة واستولى على جزء كبير من بلاد الشام ، وكان اقسيس قد انتزع الرملة وبيت المقدس من الفاطميين الا انه فشل في غزو مصر ، وقتل عام ١٠٧٩ ، حيث صار تتش يسيطر على الاقاليم الوسطى من بلاد الشام ، ومن ثم استنجد به اهل حلب ضد القائد سليمان بن قتلمش الذي حاصرها ، فاصبحت المعركة بين قائد الاناضول صاحب نيقية ، وبين تتش اخو السلطان ملكشاه نفسه ، الا ان سليمان قتل في معركة قرب حلب ، وترتب على مقتله ، توزيع دولة سلاجقة الاناضول بين امراء من التركمان ، وان هذا الوضع الضعيف مكن للقوات الصليبية ان تشق طريقها الى بلاد الشام ، ولم يقدر للسلاجقة ان يتحدوا جميعا لمواجهة الخطر الصليبي وبقيت دول سلاجقة الاناضول ، وفارس ، والشام دول سلاجقة مفككه، ولم يحاول ابناء ملكشاه وتتش ان يتعاونوا مع سلاجقة الروم ، وكان ذلك من حسن حظ الصليبيين ان واجهوا السلاجقة دولا عديدة لا دولة واحدة مما مكنهم من انزال الهزيمة بكل بيت من بيوتهم على حدة .

وفي هذه الفترة اصبح تتش سيد الموقف في بلاد الشام باكملها ، فتخوف منه ملكشاه نفسه ، فاستغل ملكشاه فرصة اصرار اهل حلب على الا يسلموا مدينتهم الا للسلطان فتحرك من عاصمته اصبهان الى حلب عن طريق الموصل ليقوم بتنظيم احوال بلاد الشام ، فمنح حلب لحاجبه اقسنقر مؤسس البيت الزنكي سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م . فعمرها واحسن السيرة فيها (١)

---

(١) ابن الاثير مصدر سابق ج١٠ ص ١٤٨ ـ ١٥٠ .

ثم سار السلطان الى انطاكية فتسلمها ، وجعل حاكم انطاكية قائدا تركيا ، واعطى الرها الى قائد تركي اخر وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وفلسطين ، كما بقيت القدس بيد الامير ارتق ، وبهذا استطاع ملكشاه من القضاء على اطماع اخيه تتش وعدم اعطائه فرصة لاقامة دولة موحدة قوية ببلاد الشام ، مما جعل البلاد تعاني من الانقسامات والخلافات ، كما ان قيام تتش بقتل سليمان بن قتلمش حرم آسيا الصغرى من قائد قوى وحد السلاجقة في آسيا الصغرى ضد الخطر الصليبي الذى بات يهدد الدولة الاسلامية، وقد اشتد فيما بعد النزاع بين سلاجقة الاناضول وسلاجقة الشام ، كما ان السلاجقة هاجموا املاك الدولة الفاطمية مما اضعف قدرتها في الوقوف امام الهجمات الصليبية ، واصبحت بلاد الشام تعاني من الفوضى والانقسامات بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم وبعض ، وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين كل من السلاحقة والفاطميين من ناحية والامارات العربية الشامية من جهة اخرى ، وخطورة هذا الحال انه جاء في وقت يتعرض فيه العالم الاسلامي لهجمة شرسة من الصليبيين ، وان انقسام المسلمين وضعف السلاجقة ومقاتلتهم بعضهم من اجل السلطة كانت الفرصة الذهبية لنجاح الصليبيين في مهاجمة العالم الاسلامي لا بل شجعهم على ذلك • وبسبب انقسام الدولة السلجوقية الى خمس دول في عام ١٠٩٦م هي سلطنة فارس وعاصمتها اصبهان يحكمها بركياروق ويملك بغداد ايضا ، ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر ، ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش ، وسلاجقة الروم وعلى رأسها قلج ارسلان ، وكل ذلك يعني انحلال دولة السلاجقة في السنة التي بدأ بها الصليبيون يهيئون انفسهم لغزو الشرق وكان من سوء الحظ انهم بدأوا بمهاجمة سلاجقة الروم التي لم تصمد امام الغزوات الصليبية •

الباب الخامس

دولة الاتابكة

في الموصل

في دمشق

دولــة الاتابــك :ـ

ـ معنى الاتابــك ـ

الاتابـك كلمــة تتكــون من كلمتيـن ، اتـا او أطـا بمعنى أب ، وبــك بمعنى الامير او الشيخ او السيد ، وفيما بعد اصبح اللقب يمنح لكبار رجال الـدول وقـواد الجيش كلقب من القاب الشرف [1] ، وقد بـدأ هـذا المركـز يظهـر في عهـد السلاجقة حيث كان الجيش يقوده مماليك ، او رجال من التركمان الذين يلحقـون بحرس الخليفة او السلطان ، الا ان هـؤلاء الأرقـاء او المماليـك كانـوا يتمردون على سادتهم ويحلـون محلهـم في حكم الولايـات ، كما حـدث عندما اخذ الضعف يـدب في جسم الدولـة السلجوقية ، فتفككت وانقسمـت الى دويـلات ، فانتقـل النفـوذ والسلطـان الى هـؤلاء المماليك باسم السلاطيـن واصبحـوا اوصيـاء على ابنـاء هؤلاء السلاطين ، لا سيما عندما صار السلاجقـة يعهـدون بتربية ابنائهم الى المقربين اليهم من الاتراك الذين ترعرعـوا في كنفهم ، واذا عين السلطـان احد ابنائـه على مدينـة من المدن او ولايـة من الولايـات ارسل معه هـذا التركي " المربي " ليعاونـه في الحكم ويسدى اليـه ما يـراه من النصائح ، وسرعـان ما اصبح هـؤلاء الاتـراك اصحاب النفـوذ الفعلـي في الولايـات التي عهـد اليهم بالحكم فيهـا ، فيعملـون لحسابهم الخـاص ويتخذون لانفسهم الالقـاب التي تروق لهم [2] وقـد اتخـذ هـؤلاء الاتابكة الالقـاب الخاصـة بهم ، وقـد تصارعـوا فيما بينهم ليوسعوا رقعة نفوذهم وكان اشهـر

---

(١) انظر القلقشندى صبح الاعشى ج٤ ص ١٨ ٠

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ عن تاريخ الاسلام/حسن ابراهيم حسن ج٤ ص ٦١ ٠

دول الاتابكة :

(١) اتابكية الموصل (٢) اتابكية حلب (٣) اتابكية دمشق ٠

اتابكية الموصل ٥١٦ ـ ٦٦٠هـ/ ١١٢٢ ـ ١٢٦٢ :ـ

بعد وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه ٤٨٥هـ دب الخلاف في جسم الدولة ، حيث قام الصراع بين افراد البيت المالك رغبة في الاستيلاء على السلطنة مما انهك قواهم العسكرية وبدد مواردهم المالية مما جعل بعض قوادهم ان يؤسس امارات مستقلة وقد كانت هذه الامارات على الاكثر في الاجزاء الشمالية الغربية من الدولة والتي كان جل سكانها من التركمان الشجعان ٠

وكان اولها واهمها اتابكية الموصل والذى كان مؤسسها اقسنقر الذى كان له مركزا هاما عند ملكشاه حيث كان قائدا عسكريا شجاعا استطاع ان يساعد السلطان بالاستيلاء على الموصل وحلب وحمص ، وبعد وفاة ملكشاه اصبح اقسنقر نائبا لقتش اخي السلطان ملكشاه ، الا انه قتله بعد ان انحاز الى تركيا روق ليحل مكانه ابنه عماد الدين زنكي والذى يعتبر المؤسس الحقيقي لاتابكية الموصل (١) وللاسرة الزنكية التي حكمت حتى ١٢٦٢م ٠

لقد لعب عماد الدين زنكي دورا فعالا في الصراع على السلطنة في بغداد ، بين سلاطنة السلاجقة التي ذهب ضحيتها عدد من الخلفاء العباسيين حيث ايد الخليفة المسترشد ، وابنه الخليفة الراشد ، والمقتفي (٢).

---

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج١٠ ص ٢٤٤ ٠

(٢) المصدر نفسه : ج١١ ص ١٠ ـ ١٥ ٠

بادر عماد الدين من اجل تكوين جبهة اسلامية موحدة عن طريق حشد قوى المسلمين لاجل توفير القوة العسكرية للوقوف ضد الصليبيين ، فاخذ بوسع سيطرته ليكون دولة قوية ، فاحتل جزيرة ابن عمر، ونصيبين ، وسنجار [1] ثم احتل حران ، ثم حاول التوجه الى الرها التي كان يسيطر عليها الصليبيون الا انه عدل عن محاربتها ليتوجه الى حلب ، فاحتلها عام ٢٢ده ، مما حقق للمسلمين توحيد جبهة قوية من الموصل الى منطقة حلب ، وهذا ما كان يخشاه الصليبيون بسبب قطع الصلة بين امارة الرها والامارات الصليبية في بقية بلاد الشام • ومن ثم سيطر عماد الدين على منبج وحماة سنة ٢٣هـ/ ١١٢٨م ، ثم احتل من الصليبيين حصنا هاما في شمال الشام وهو حصن الاثارب وهو نقطة البداية في استرجاع تلك المنطقة من الظليبيين ، فان هذا الحصن يقع على بعد د ١كيلومترا غرب حلب باتجاه انطاكية ، وبعد ان اتم سيطرته على الشام عاد الى بلاد الجزيرة في شمال العراب يستولي على ديار بكر والقلاع المنتشرة هناك ، وتغلب على امراء تلك المنطقة ومن ثم اعاد الكرة نحو بلاد الشام ليقارع الصليبيين ليسترجع معرة النعمان ، ثم ليسطروا على حمص ليضمها الى ملكة ثم بعلبك ، وحاصر دمشق سنة ٣٤ده •

ان اهم عمل قام به نور الدين هو فتح الرها اول دولة صليبية في الشرق سنة ٣٩ده ، وكان اهم اسباب نجاحه في استرجاع الرها من الصليبيين هي :ـ تحركه السريع وحصاره الشديد وتشجيعه لجنده حيث حاصرها ٢٨ يوما ، هذا الى جانب استخدامه الحيلة ، لصرف نظر جوسلين امير الرها عنها حيث تظاهر بانه متجه الى آمد ، يضاف الى ذلك

---

(١) حزيرة ابن عمر شمال الموصل، ونصبين بينها وبين دمشق وسنجار غربها (انظر ياقوت الحموى ، معجم البلدان)•

الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي ، والظروف التي كانت تحيط في الرها نفسها منها تصدع الحلف البيزنطي الصليبي ، وقيام الصراع بين الرها وانطاكية ووفاة ملك بيت المقدس ، وعدم وجود قوة عسكرية تدافع عن الرها ٠

وقد كان نتائج فتح الرها باهرة بالنسبة لنور الدين والمسلمين حيث كانت اول ثغرة نفذ منها المسلمون الى قلاع الصليبيين وقد استطاع نور الدين السيطرة على المدن التي كانت تابعة للرها ، فاصبح وادى الفرات خالصا للمسلمين [1] ٠ كما كان لسقوطها اثر كبير في اقامة الوحدة بين الشام والجزيرة الفراتية وكان لسقوطها ايضا انهاء اهميتها العسكرية بالنسبة للفرنجة وتهديدهم للجزيرة الفراتية وحلب ، وسقوطها يعني اول صدع اصاب اساس البناء الصليبي في الشرق ٠

واستطاع عماد الدين بعد ذلك ان يوجه اهتمامه للسيطرة على امارات صغيرة كانت منتشرة هنا وهناك ، وكان ذلك تمهيدا لتوحيد بلاد الشام والجزيرة ٠ الا ان عماد الدين قتل فجأة على يد احد مماليكه فتوقفت السلسلة الاولى لتوحيد بلاد الشام ٠ وكانت اعماله تمهيدا لطريق نور الدين محمود الذى اكمل ما بدأه عماد الدين زنكي ٠

دور آل زنكي في بناء الوحدة :

انقسمت دولة عماد الدين زنكي بعد موته الى قسمين رئيسين قسم شرقي وعاصمته الموصول بقيادة ابنه الاكبر سيف الدين غازى ، وغربي وعاصمته

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج٢ ص ٨٠ ٠

(٢) ارنست باركر ، الحروب الصليبية ص١٥٧ ٠

حلب بقيادة ابنه نور الدين محمود [1] الا ان الوحدة كانت تتم بين القسمين او مجموعة الاتابكيات بين احفاد عماد الدين عندما يهددهم عدو خارجي ٠

استطاع سيف الدين غازي اكبر ابناء عماد الدين ان يكون اتابكة خاصة به عن طريق مساعدة احد وزرائه متخطيا العقبات لما تتوفر به من مؤهلات كونه اكبر اخوته سنا الى جانت خدمته التي امضاها في كنف الحكم والادارة مع والده بدليل ان اختياره تم عن سابق معرفة به ٠

اتابكية الموصل في عهد سيف الدين غازي :ـ

استطاع سيف الدين غازي ان يسيطر على الموصل والجزيرة عدا بعض المدن ، ومد نفوذه الى بعض اجزاء الشام كحمص والرقة في حين سيطر نور الدين محمود على حلب ، وقد اعتبر ذلك خروجا على تقاليد القبائل التركية ، التي تقضي بان تكون السيادة على جميع الاتابكية للابن الاكبر ، الا ان سيف الدين اقرّ اخاه على اتابكية حلب واتفق معه على ان يتعاونا ضد الاعداء الفرنجة او غيرهم ، وكان اول تعاون بين حلب والموصل في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م عندما تعرضت دمشق الى الحملة الصليبية الثانية التي ضمت ملوك اوروبا ، حيث حاصروها ، فطلب صاحبها النجدة مع الاتابك سيف الدين غازي ، فانجده بعساكر الموصل والجزيرة وانضم اليه في الشام اخوه نور الدين محمود ونزلا حمص ، وارسل سيف الدين الى حاكم دمشق ان يسلمها لاحد نوابه ليتسنى له الدفاع عنها وانه لا يطمع بدمشق كما ارسل الى الصليبيين يتهددهم بان لا يقتربوا من دمشق ٠ كما بعث حاكم دمشق اليهم بانه سيسلم دمشق الى سيف الدين ان لم يرحلوا عنها ٠ وبالفعل فقد رحل الغزاة وتركوا

---

(١) د٠سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج٢ ص ٦١١ ٠

دمشق دون ان يهاجموها . وبذلك يكون الدور الاول لفك الحصار عن دمشق لسيف الدين غازي ، كما ان قوات الاخوين سيف الدين ونور الدين دافعت عن حلب عند مهاجمتها من قبل امير انطاكية الصليبي . وقد عادت قوات سيف الدين الى الموصل ليقوم باسترجاع بعض المناطق التي خسرتها الامارة بعد وفاة عماد الدين ، الا ان اتابك الموصل سيف الدين توفي بعد حكم دام ثلاث سنوات تقريبا ، بعد ان قدم بعض الجهد في سبيل قيام الوحدة والتحرير، وعهد بامر الموصل من بعده الى اخيه قطب الدين لكونه اكبر سنا ، واعتبر نفسه اولى بحكم الموصل ، فبدأ باحتلال سنجار [1] وكادت تحدث مجابهة حربية بين الطرفين ، الا انهما التقيا شخصيا اتفقا على الصلح والتعاون العسكري في سبيل مصلحة البلاد وان قطب الدين ارسل قواته الى نور الدين لمساعدته في دمشق ثم قادا عدة حملات عسكرية ضد الفرنجة في الشام وقد احتلت قواتهما عدة مدن من الصليبيين . وان وقوف قطب الدين صاحب الموصل الى جانب اخيه نور الدين في حلب قد ساعده على التفرغ لمقارعة الصليبيين وحماية ظهره من الامارات المسلمة المجاورة له الا ان اتابكية الموصل قد اخذت في الضعف بعد وفاة قطب الدين سنة ٥٦٥هـ وقد اوصى بالحكم لابنه الاكبر عماد الدين الا ان خادمه فخر الدين قد حول الامر الى ابنه الاصغر سيف الدين غازي خدمة لاغراضه ، وبذلك لم يبق لاتابك الموصل سوى الاسم . مما حدا بنور الدين الى توسيع نفوذه ليشمل ملكه الموصل بالاضافة الى الشام وتقلصت املاك الموصل بسبب اقتطاع اجزاء منها في الجزيرة الفراتية . وقد تحملت اتابكية الشام العبء الاكبر بقيادة نور

(١) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص٥٧ .

الدين محمود لتوحيد مصر والشام والجزيرة الفراتية مكونة وحدة قوية لمقارعة الصليبيين ، وكان ذلك كله مقدمة لقيام دولة بني ايوب ليحكموا الشام ومصر والجزيرة .

اتابكية دمشق :-

استطاع احد قواد الجيش السلجوقي واسمه طغتكين ، وكان مملوكا لتتش ابن ألب ارسلان ان يسيطر على دمشق ، حوالي سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥م ، ويمد نفوذه الى حلب والجزيرة وديار بكر واذربيجان وهمدان ، وقد بقيت اتابكية دمشق تحت سيطرة آل طغتكين حتى وقعت تحت سيطرة آل زنكي سنة ٥٤٩ هـ باستيلاء نور الدين زنكي عليها .

ثم انتقل النفوذ فيها الى الايوبيين على يد صلاح الدين الايوبي وبعده اخوه العادل ، وبذلك تكون كل من اتابكية دمشق وبعدها اتابكية حلب والموصل التي سيطر عليها صلاح الدين الايوبي .

الفصل السادس

- امارة آل زنكي في الموصل وحلب
- دور آل زنكي في توحيد الجزيرة الفراتية
- دور آل زنكي في مواجهة الغزو الصليبي

. . . .

. . . .

. . . . .

. . . .

. . .

. .

.

.

الأسرة الزنكية : وعلاقتها بالموصل :ـ

يعود أصل الاسرة الزنكية الى آق سنقر " زنكي " الذي ينسب الى أصل زنكي [1] ، وقد تربى مع السلطان ملكشاه فأحبه محبة شديدة ، حتى كان يفضي بأسراره ، ويجلسه عن يمينه ليستشيره ، ويرسله في المهمات الخاصة والصعبة لرجاحة عقله وحزمه ، فجعله من امرائه وأفضى اليه بأسراره [2] ؛ واعتمد عليه في أموره كلها ، وعلت مرتبته ومنزلته حتى لقب قسيم الدولة [3] . وقد خافه نظام الملك فأشار على السلطان أن يوليه وليبعده عن خدمة السلطان [4] .

أظهر قسيم الدولة " أق سنقر " كفاءة وقدرة عسكرية ، عندما أمره السلطان بالتوجه الى الموصل لضمها من العقيليين ، ثم سلّم السلطان قسيم الدولة حلب وأعمالها كمنبج واللاذقية وكفرطاب . وما أسرع ان استدعاه السلطان الى العراق ، ثم امره بالعودة الى حلب [5] .

وعندما تقررت ولاية حلب سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٥٧م) ، بسط العدل وحمى السابلة ، واقام الهيبة وأنصف الرعية وتتبع المفسدين فقضى عليهم ، وقصد

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ٥٨ . ابن الاثير : الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية ، ص ٤ .

(٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ٤ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، جه ، ص ٢٧٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١١ .

(٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ٤ ، ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ٦١ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٩، ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص٦١ .

اهـل الشـر فأبعدهـم ، فعـم الامـن ، وازداد ارتفـاع البلـد بالـواردين بالبضائـع من جميع الجهـات ، الى جانـب تـعمير الطـرق ممـا ادى رخص الاسعـار والامـن الواسـع، حتى تحـدث الركبـان عن سيرتـه [(١)].

ولما توفى السلطان ملكشاه السلجوقي فقد تولى بعد السلطـان بركيـا روق ، مـدّ قسيم الدولـة " آق سنقـر " يـده الى تـاج الدولـة تتش شقيـق السلطـان ، الـذى كـان حاكمـا لدمشـق وطبريـا ، فضـمّ حلـب بعد وفـاة شقيقـه، مع الاحتفـاظ بالحـب والاخـلاص للسلطان الجديـد ممـا اثـار حفيظـة تـاج الدولـة تتش ، وتطـور الخـلاف الى القتـال بين قـوات السلطـان بقيـادة آق سنقر وقـوات تتش ، وحاقـت الـهزيمـة بقـوات السلطـان ، وقتـل قسيم الدولـة آق سنقـر عـام ٤٨٧هـ/ ١٠٦٤م [(٢)] ، وتـرك من بعـده عمـاد الدين صبيـا لم يتجاوز العاشـرة من عمـره •

ملـك تـاج الدولـة تتش ديـار بكـر والجزيـرة وأذربيجـان ، واستمـر الصراع بين تتش وابن اخيـه السلطـان بركيـا روق ، وحلّـت الـهزيمـة بجيـش تتـش قـرب الـري ، وحقـق أمـراء آق سنقـر انتقامهـم لقائدهـم وسلطانهـم ، واستقـام الامـر للسلطـان السلجوقـي بركيـا روق ، وآل أمـر الموصـل الـى القائـد قـوام الدولـة : " أبو سعيـد " كربوقـا [(٣)].

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص١١٩، ١٢٠ ، ابو شامة : كتاب الروضتيـن ، ج١ ، ص ٦١ •

(٢) ابن الاثيـر : الباهـر : ، ص١٥ •

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج١٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨ •

أولى والي الموصل " كربوقا " عنايته لعماد الدين زنكي اعترافا لفضل أبيه ، فقد طلب من مماليك قسيم الدولة آق سنقر احضار عماد الدين وقال : هو ابن أخي ، وأنا أولى الناس بتربيته ، ثم أقطعهم الاقطاعات السنية (١) وجمعهم على عماد الدين ، وألقاه بين مماليك والده ليكتسب المران والخبرة في فنون القتال ، ولم يزل عماد الدين تحت رعاية كبروقا الى أن مات عام ٤٩٤/ ١١٠٠م ، فتولى الموصل من بعده موسى التركماني الذى لم تطل مدته وقتل ، وملك بعده شمس الدولة جكرمش (٢) ، وكان هذا زميل آق سنقر والد عماد الدين ، فقرّبه عرفانا ووفاء له ٠

تولى الموصل بعد موسى الوالي جاولي سقاو ، وكان عماد الدين زنكي ، قد شب وكبر ، وبدت عليه امارات الذكاء والفروسية فاتصل بالوالي الجديد الذى أبقى العلاقات الطيبة بينهما الى أن عصى الوالي السلطان محمد ، فانفصل عماد الدين عنه لولائه للسلطان ٠ ثم عين السلطان على الموصل أميرا جديدا هو مودود بن التونتكين عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٨م ٠

اتصل الامير الجديد مودود بعماد الدين زنكي الذى قربه اليه ، ومنحه اقطاعات جديدة ، وشهد عماد الدين مع الامير مودود حروبه كلها مع الصليبيين ، وخاصة معركة طبرية (١٠محرم٧ ٥٠هـ/ ١١١٣م) التي الحق

---

(١) ابن الاثير : الباهر ، ص١٥ ٠

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٤٣٠ الباهر ، ص١٥ ، ١٦ ، أبو الفدا : المختصر بأخبار الشر ، ج٤ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ ٠ ، ابن خلدون : تاريخ ، ج٥ ، ص ٢٩ ، ٣٠ ٠

المسلمون بالصليبيين وملكهم بلودين هزيمة شديدة بعد قتال استمر ستة وعشرين يوما تميّز فيها عماد الدين بشجاعته [1] ومهارة وكفاءة في القتال ·

دخل الأمير مودود دمشق واقام فيها ، ولكنه بينما كان يسير في صحن المسجد الاموى يوم الجمعة ٢١ ربيع الاول ٥٠٧ هـ ، تقدم منه احد الباطنية وطعنه عدة طعنات ، فمات [2] ، وادخل موته الفرج على قلوب الفرنج لصلابته وقدرته القتالية [3] .

اشترك عماد الدين على رأس جيش الموصل بقيادة آق سنقر البرسقي لقتال الصليبيين بناء على أوامر السلطان محمد ملكشاه ، التقت جنود السلطان التي زاد عددها على خمسة عشر ألفا مع الصليبيين والأرمن في الرها وسمباط وسروج وأبلى عماد الدين في القتال [4] ، وتحدث الجنود عن شجاعته واقدامه في المعارك التي خاضها ، ليعود ثانية الى الموصل ويستقر بها عام ٥١٤هـ/ ١١٢٠م ·

---

(١) Stevenson : The cnusades in the east P. 121, 122 .

(٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٩ · ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص١٨٧، ابن العديم : ج٢ ، ص ١٦٣، ١٦٤، السيوطي تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٠
ابن العبرى : مختصر الدول،ص ١٩٩، الذهبي: دول الاسلام ، جـ ، ص٢٥ ·

(٣) عماد الدين خليل : المقاومة الاسلامية للغزو الصليبي ، ص١٠٧ ·

(٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٩ ، ٢٠ ·

عماد الدين والي واسط والبصرة :-

تولى السلطان محمود بعد والده ، فأقطع عماد الدين زنكي مدينة واسط وولاه البصرة عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م ، وأثبت عماد الدين قدرته الادارية والسياسية في منصبه الجديد ، فقضى على الفوضى ونشر الامن ، وحمى المواطنين من الاعراب الذين يهددون الناس ، مما زاد تقدير السلطان محمود له واكسبه ثقته [(١)].

وعندما ساءت العلاقات بين السلطان والخليفة العباسي المسترشد وقف بجانب السلطان في حملته على بغداد ، فجهّز المقاتلة في البر والماء والسفن من البصرة وواسط والبطائح ، فلما تمّ الصلح بين الخليفة والسلطان كلّف السلطان عماد الدين أمر بغداد والعراق ليضبط أمورها ، بالاضافة الى واسط والبصرة ٠

عماد الدين والي الموصل وديار بكر، والجزيرة ونصيبين :-

ولمّا خلا الامر في الموصل بعد اغتيال واليها آق سنقر البرسقي على يد أحد الباطنية ، وتولية ابنه عز الدين مسعود الذى لم يمكث طويلا فلحق والده عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧م [(٢)]، تولى عماد الدين زنكي ولاية الموصل وديار بكر والجزيرة ونصيبين ، وتعتبر ولايته هذه تحولا هاما في حياته السياسية

---

(١) فتحية النبراوى : العلاقات السياسية الاسلامية ، ص ١٧١ ٠

(٢) ابن الاثير : الباهر ، ص ٢٨ ، ٢٩ : الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٤١ ٠

والفكرية والعسكرية [1] ، فقد عمّر البلاد ونشر الامن والسلام ، فامتلأت أهلا وسكانا ، فأخذ الناس يهاجرون اليها [2] ، مما أدى الى تحويل المدينة الى عاصمة أقوى امارة شهدها الربع الثاني من القرن السادس الهجري [3] واصبحت الموصل منذ هذا العهد قاعدة للتحركات العسكرية ، سواء للاسهام في الصراع بين السلاطين من أجل الحكم او القتال الصليبيين ، ووقف خطرهم الزاحف الذي يهدد أمن بلاد الاسلام بعد اجتياحهم لأراضي الدولة الاسلامية في بلاد الشام ، وامتد نفوذهم الى حدود ماردين ومصر ، وبلغت بسراياهم ديار بكر وآمد دون أن تجد الردع الكافي الذي يوقف عدوانهم ، مما أدى الى انتشار الرعب والخوف بين الناس ، وانقطعت الطرق بين المدن الاسلامية ، فتوقفت التجارة [4] .

عماد الدين يضم جزيرة ابن عمر :-

أحسّ عماد الدين زنكي بثقل المسؤولية الدينية ، فكان لا بد من وضع خطة استراتيجية (بعيدة المدى) مضادة للوجود الصليبي ، وتقضي خطته البدء بوحدة الامارات المجاورة ، تتوجه مع عماد الدين الى جزيرة ابن عمر وكان بها مماليك البرسقي ، فراسلهم لينضموا اليه ، فرفضوا باديء الامر ، فلما

---

(١) فتحية النبراوى : العلاقات السياسية ، ص ١٧٣ .

(٢) ابن الاثير : الباهر ، ص٧٧ .

(٣) عماد الدين خليل : المقاومة الصليبية للغزو الصليبي ، ص ٣٢ .

(٤) ابن الاثير : الباهر ، ص ٣٢ ، ٣٣ . قارن مع الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٤٣ ، ٦٤٥ .

ضيّق عليهم الحصار ويئسوا من النجاح ، طلبوا منه الامان ، فأجابهم الى ذلك [1].

ثم سار عماد الدين الى نصيبين وكان عليها حسام الدين تمرتاس صاحب ماردين ، وحاول ان يستنجد بابن عمه ركن الدين داوود بن سقمان صاحب حصن كيفا ، ولكن لم يلب نداءه ، فكانت المنازلة، فدخل المدينة ، فطلب أهلها الصلح وسلموا له البلد [2].

عماد الدين يضم سنجار والخابور وحران :-

ثم يمم عماد الدين وجهة شطر سنجار ، فامتنع أهلها بادئ الامر ، ثم سلموا له ، ومنها توجه الى الشحن والخابور فضمهما ، ومنها الى حران فخرج أهلها وسلموها له [3].

بعد هذا الضم والتوسع ، وجد عماد الدين أن يتفرغ الى تنظيم البلاد واصلاحها واعدادها للمستقبل القريب ، فراسل جوسلين والي الرها الصليبي ، وهادنه مدة يسيرة [4].

لقد نظر عماد الدين زنكي في الاقاليم التي تحت ولايته ، فوجد

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٧٣ ، ابن واصل : مفروج الكروب ، ص ٣٦ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج١٠ ، ص٦٤٧ ، قارن مع الباهر ، ص٣٧ .

أن وحدة الموصل وبلدان الجزيرة لا تستطيع أن تقدم له ما يريد من الامكانيات الاقتصادية والبشرية التي تعتمد عليها الامكانيات العسكرية ، بالاضافة أن موقعه في الموصل بعيد عن ارض المعركة ، فكان لا بد ان يخطو خطوة جديدة نحو استراتيجيته الشاملة للقضاء على الصليبين ورأى انه لا يمكن ان تتحقق الا بالاتجاه نحو بلاد الشام وضم ما يمكن بل اكبر مساحة منها ٠

عماد الدين زنكي في حلب : يتصدى للصليبيين :-

انفصلت حلب عن دمشق منذ موت تتش فكانت من نصيب الملك رضوان ، وقد ثار اهلها عليه وهاجموا القلعة ٢١٥هـ/ د١١٢١م وتقدم الصليبيون حتى ابواب حلب ، بحيث كانت اراضيها مناصفة ، والمدينة تحت رحمة هجمات وتهديدات الصليبيين المتواصلة ، وكان الامراء في المدينة في خلاف دائم ، مما دعا الاهالي الى الاستعانة بعماد الدين زنكي ، فأرسل اليهم جيشا بقيادة صلاح الدين محمد الباغيسياني ، الذى دخل حلب ، فخرج اهلها فرحين بقدومه ، فقام بترتيب امور الدولة ، وقام عماد الدين باقطاع الامراء والاجناد[1] عام ٥٢٣هـ/ ١١٢٨ان ، واستقبل الشعب عماد الدين بالترحاب والسرور ، وأظهروا من الفرح ما لا يعلمه الا الله[2] ٠

---

(١) ابن الاثير : الباهر ، ص ٣٨ ٠

ووجد عماد الدين الفرصة كبيرة للاستيلاء على المدن حلب ودمشق ، وقد تمكن من ضمها بالحيلة ، فقد كتب الى تاج الملوك بوري يلتمس منه المهونة والاستعداد لحرب الفرنج ، فأرسل ولده بهاء الدين سونج على رأس خمسمائة فارس ، فأحسن عماد الدين لقاءهم وبالغ في الاكرام لهم وغافلهم وقبض على بهاء الدين سونج ، ثم زحف على حماة واستولى عليها سنة ٢٤د/ ١١٢٨ [١] ، ومنذ هذه اللحظة ظهر زنكي مرعبا للامراء المسلمين وكان بقوته وبالرعب الذى يلقيه في قلوب المحاربين [٢].

عماد الدين يضم حمص وحماة :-

وفي العام التالي ضم عماد الدين حمص والتقى مع صاحب كيفا وآمد وغيرهما ، فهزمهم فس سرجة (سرجى) ودارا ، ثم احتل حصن الاقارب الذى يشكل خطرا على حلب ، فحارب الفرنج وملك الحصن [٣] .

وهكذا تمكن عماد الدين من ضم بلاد الشام الشمالية حلب وحماة وحمص بالاضافة الى الموصل وايران الجزيرة ٠

وتوطدت العلاقات بين الخليفة العباسي المسترشد مع عماد الدين زنكي بعد جفاء وقطيعة ، وقام بين الاثنين حلفا عام ٢٨هـ/ ١١٣٣م وقبل زنكي ذلك فأصبح هو المشرف على العراق والحاكم الفعلي لها ، لكن

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٧، ٢٧٨ ، ابن تغردى بردى: النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٣٦ ٠

(٢) شاكر ابو بدر : الحروب الصليبية: والاسرة الزنكية ، ص ٩٨ ٠

(٣) أأبو شامة: كتاب الروضتين، ص ٧٨ ٠ ابن الاثير : الكامل ، ج١٠ ، ص ٦٥٨ ٠

الخليفة لم يطل به العهد فقد اغتيل على يد احد الباطنية[1]. وبويع ابنه الذي اغتيل بطريقة ابيه عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م .

وفي هذا الوقت هجم الامبراطور البيزنطي يوحنا الثاني بزاعة ثم اتجه الى شيرز (الحصن المنيع قرب حماة) ، وسانده الصليبيون بمعدات الحصار والمنجنيقات ، واستعان صاحبها ابو العساكر سلطان بن علي بن منقذ بعماد الدين زنكي ، فلما وصله الخبر باعتدا ت البيزنطيين والصليبيين لبى نجده صاحب شيرز .

وراسل عماد الدين كلا من الروم والصليبيين ، وخوّف كل واحد منهما بالاخر ، فدب الخلاف بينهما ، ورحل ملك الروم عن الحصن تاركا وراءه آلات الحصار والمنجنيقات ، فتبعهم عماد الدين ، وغنم وآسر وقتل منهم ، وعاد بغنائمه من الاسرى وآلات الحصار الىّ حلب ، وبذلك حقق نصرا عسكريا ، وآمن للمسلمين قلب سوريا ، وهكذا انتقل من مرحلة التصدى الى مرحلة التحرير .

ثم توّجه عماد الدين نحو حصن عرقة من اعمال طرابلس، فاستولى عليها من الصليبيين . ثم سار نحو دمشق وكانت تحت امرة محمد بورى الذي توفي ، وهي محاصرة ، فولى امراء دمشق معين الدين آنر الذي ارسل وفدا دمشقيا الى بيت المقدس واتفق معه آن يأخذ بانياس من زنكي .ويسلمها للفرنجة ، وأن يقاسم الفرنجة قوت دمشق ويدفع للفرنج عشرين ألف

---

(١) ابن الاثير : الكامل : ص ١١ ، ص ٢٦ .

قطعة ذهبية كل شهر [1] ، ووقعت المعاهدة على ذلك بالايمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوا ، وحملت الاموال والرهائن [2]، وشرعوا في الاستعداد وكاتب بعضهم بعضا على الاجتماع من سائر المعاقل والبلاد لابعاد عماد الدين زنكي وصده عن نيل الارب من دمشق والمراد قبل استفحال امره .

وعندما تأكد زنكي من تجمع الافرنج وعزمهم على قصده ، رغب في مهاجمتهم قبل الاجتماع الى دمشق ، فسار الى داريا طالبا حوران، وطلبهم ان يعدوا عنه ، فعاد الى الغوطة ونزل بعذراء ، فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة الى خرستا التين [3].

والتقى ريموند صاحب انطاكية الذى استلم حصن بانياس [4] من الخائن معين أنر بعد ان فشل ريموند من احتلالها بالقوة .

وفي صبيحة يوم السبت من ذى القعدة عام ٥٣٤هـ/ ١١٣٨م ، وصل عماد الدين زنكي لعسكره ظاهر دمشق ، فلما انبلج الصبح علت الجلبة والصياح ونفر الناس وفتح الباب وخرجت الخيل والرجالة ، ونشب حرب بينه وبين عسكر دمشق وجرح من الفريقين جملة وافرة ، وأحجم عماد الدين عنهم لاشتغاله عن بثه من سراياه للغارة ، وحصل في يده الخيول والاغنام

---

(١) K. enneth : Historl of crusades , P . 459 .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧١ .

(٣) ابن القلانسي : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ انظر للمقارنة .

Stevenson : The crusades in the east , P. 145 .

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

والابقـار مـا لا يحصـى ، وسـار عاشـدا على الطريـق الشماليـة [1] .

" ولـو أن زنكـي لـم يجد عقبـات عنـد قتـال الفرنـج لسقطـت مملكـة بيـت المقدس في وقـت سابـق، غيـر أن ثمـة دولتيـن اعترضتـا طريق عماد الديـن زنكي وحالتـا دون تقدمـه ونجاحـه ، وهمـا امـارة دمشـق ، واباطـرة القسطنطينيـة، ذلـك ان وضـع دمشـق بين الموصل وبيـت المقـدس ولهـا اهميتهـا من النـاحية الحربية، ولـوقوعـهـا علـى الطريق التجاري بين الفرات ومصـر تحكمت في الشـام "[2] .

وكان عماد الدين زنكي يـرى موالاة حـرب الصليبييـن واقلاق راحتهـم ، فأعد قـوّة ضاربـة عظيمـة الكفايـة ، وجعلهـا في حركـة دائمـة ، فكـان يقودهـا بنفسـه، أو يرسـل أحـد قـواده ، ممـا أنهـك قوى الصليبييـن ، وأوقـع الرعـب في قلوبهـم، ولـولا عنـاد صاحـب دمشـق ، لبلغ من التوفيق اكثـر ممـا بلـغ [3] .

واتفـق البيزنطيـون والصليبيـون على حصـار حلـب ، علّهم يعّوضو مـا خسـروه من المدن والقـلاع ، فاستنجـد الاهالـي بالخليفـة العباسي والسلطـان مسعـود السلجوقـي وعمـاد الديـن زنكي ، وتأخـر المـدد ، فسـاءت الاوضـاع السياسيـة ، لكـن الفـرج اقـترب باقـتراب عمـاد الدين ، فلمـا وصلـت الاخبـار للـروم والفرنـج رحلـوا خائبيـن دون ان يحققـوا شيئـا [4].

توجـه عمـاد الدين زنكي (٧٣٥هـ/ ١١٤٢م) الى الهكاريـة ، وأعظـم قلاعهـا الشـعباني ، فاستولـى عليهمـا وبنى قلعة باسم سماهـا العماديـة .

---

(١) ابـن القلانـسي : ذيـل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٣ .

(٢) باركـر : الحروب الصليبيـة ، ص ٥٠ .

(٣) حسين مؤنس : نور الدين زنكي ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٤) أبـو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ٩٤ ، انظر ابن الاثير ، ج١١ ، ص ٩٩ .

فتح الرها ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م :-

استولى بلدوين على الرها عام ١٠٩٨ (الحملة الصليبية الاولى)، وبذلك ثبّتت الفرنج أقدامهم شرق الفرات ، وهي مهمة بالنسبة للمسيحيين لاغتزازها بمنديل المسيح ، وللقوة السحرية لقديسها برسومة[1] ، وكانت تحتل أحد الكراسي الدينية المهمة لديهم بعد القدس وانطاكية وروما والقسطنطينية[2]، لذلك حصنها الصليبيون حتى اصبحت من أمنع المعاقل ، وتسيطر على الطرق المؤدية الى حلب والموصل ، وهي تقع غربي دجلة ، وتصل جنوبا الى الصحراء، وتقع شمالها جبال أرمينيا فكانت بمنجاة عن محاولات عدة للمسلمين[3]، فقد هاجموها اكثر من مرّة وصمدت لهم ، هاجمها كربوغا ٤٩١هـ/١٠٩٨ ، ومودود ٥٠٢هـ/ ١١٠٨ وبلك بن ارتق ٥١٦هـ/ ١١٢٣ وجكوى ولم يستطيعوا فتحها .

رأى عماد الدين زنكي أنه آن الأوان لاستعادة الرها ، لا لأهميتها ولاكتمال التدريب والاستعداد لجيشه ، بل لأنها لا تبرح ذكرها خلده وسمعه[4]، فهي معوّقة لكل خططه الشاملة وتهدد حلب والطرق بين حلب والموصل ، وقريبة من عاصمة الخلافة ، وتجعل حلب منفصلة .

استغل عماد الدين زنكي الفرصة السانحة ، فقد حدث نزاع بين

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٥٥ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج١١ ، ص ٩٨ .

(٣) حسن حسني : نور الدين ، ص ١٢٠ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ .

الامبراطور البيزنطي مانويل وريموند حاكم انطاكية ، [1] كما أن جوسلين الثاني اعتمد على تحصينات المدينة ، ومحاربيها من الأرمن [2] ، وخرج من المدينة متوجها نحو البلاد الغربية ٠

أخفى عماد الدين خططه بكل حذر وحاصر الرها من جميع الجهات، وحالوا بينها وبين ما يمكن أن يصل اليها من الاقوات ، ونصبت المناجيق ترمى عليها ، وشرع النقابون في نقب عدة مواضع عرفوها ، حتى وصلوا الى تحت أساس ابراج السور ، فعلقوا الاخشاب المحكمة والآلات المنتجة واخذوا يطلقون النار ، حتى هدم جزءا من السور ، فملك الرها بالسيف، عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤، ثم أمر بعمارة ما انهدم وترميم ما تشعث ، وطيب نفوس أهلها ، وبسط العدالة في أقاصيهم وأدانيهم [3].

أعاد عماد الدين جميع السجناء ، وبين لاهلها المسيحيين انه جاء ليحررهم من الفرنجة الطغاة ، وأراد أن يتخذ من الرها نموذجا لجذب عطف ومحبة سكان المدن الاخرى اليه ، وهذا أدى الى كسب مساعدة السوريين في الرها [4].

---

(1) Stevenson : The crusades in the East , P. 149 .

(2) Ibid P. 149

(3) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ٠ انظر : ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ٢٧٩ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ٩٥ ٠ ابن واصل مفرج الكروب ، ص ٩٤ ٠

(4) شاكر أبو بدر : الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ، ص ١٤٥ ٠

لقد كسب الفاتح عماد الدين العناصر الوطنية ، وسمح للرها أن تعيش تحت حكمه كمدينة مسيحية ، واكتفى بالاحتفاظ بقوة عسكرية فيها ، وعاملها أهلها من المسيحيين وكنائسهم معاملة حسنة ، وأوصى بأهلها خيرا .

ولما ورد خبر اعادة الرها للمسلمين فزع الصليبيون ، وأرسلت انطاكية جيشا لانجاد اهل الرها ، فأرسل لهم عماد الدين جيشا وافر العدد ، فهجموا عليهم وأوقعوا بهم وفتكوا بهم ، فرحل في الحال ، واستولى المسلمون على كثير من الاسرى واعداد كبيرة من السيوف (1).

وأرسلت مملكة القدس الكتائب لمساعدة الرها ، لكنها وصلت متأخرة ونالت كسابقتها الهزيمة (2).

أثر استعادة المسلمين للرها على الصليبيين والمسلمين :-

لقد كان استعادة عماد الدين زنكي للرها نقطة تحول بالنسبة للمسلمين وللصليبيين . فقد ادى فتح الرها الى الاتصال المباشر بين امارة الموصل وحلب ، وايران بآسيا الصغرى ، وبذلك انقطع كيد المتآمرين من الجيران والأرمن ، فكانت تمهيدا للعمل الحاسم (3). ونقطة تحول في الشرق اللاتيني وبداية النهاية (4).

---

(1) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٠ .

(2) Stevenson: The crusades in the East, P. 149

Campbell : The crusades , P. 128

(3) حسين مؤنس : نور الدين ، ص ١٧٦ .

(4) باركر : الحروب الصليبية ، ص ٧١ - ٧٢ .

فقد قلب الفتح كفة الميزان لصالح المسلمين ، وكان ضربة كبرى في نهاية الامارات الصليبية لان الرها كانت الحصن الحصين للامارات المسيحية، وقد كان مكسب حلب ثلاثيا فقد أمّنت اتصالها مع الشرق وأصبح عدوها في الامام وليس في الخلف والامام ، وأخذت تحيط بالمقاطعات الفرنجية [1]، وبذلك قدّم زنكي خدمة عظيمة باخضاعة الرها ، مما جعل المسلمون يفرحون ويبتهجون لهذا الفتح العظيم ، ويعتبرونه تقهقرا بليغا لامراء اللاتين وعلامة انتصار عظيمة لاعادة مملكتهم الكاملة [2]، ولهذا لا عجب اذا عبّر الشعراء عن فرحتهم شعرا ، بهذا الفتح العظيم ، فأنشد القيسراني وابن المغير وغيرهم بهذه المناسبة [3]،

اما أثر عودة الرها للمسلمين على الفرنج ، فقد أحزنت جميع الصليبيين المتوطنين في الشرق ، وأقلقت أرواحهم وأزعجت افكارهم ، ومزقت احشاءهم مرارة ، وأحسوا بتعاسة الايام القادمة ، فاعتراهم الخوف، لاحساسهم بزوال الامارات من ايديهم قريبا ، فالصاعقة تهيأت لان تنقض عليهم ، مما جعلهم في حال من الانذهال والبؤس معا [4].

---

(١) شاكر أبو بدر : الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ، ص ١٤٨ .

(٢) مكسيموس : الحروب المقدسة ، ج١ ، ص ٢٥٨ .

(٣) قال القيسراني مهنئا زنكي قصيدة مطلعها :-

سمت قبة الاسلام فخرا بطوله ... ولم يك يسموا الدين لولا عماد

لقد كان فتح الرها دلالة ... على غيرها عند العلوج اعتقاده

وقال ابن المغير :-

فتح أعاد على الاسلام بهجته ... فافتر مبسمه واهتز عطفاه

انظر : ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ٩٦ - ٩٩ .

(٤) شاكر أبو بدر : الحروب الصليبية والاسرة الزنكية، ص ١٥٠ .

لقد كان سقوط الرها نكبة على جميع الفرنجة في سوريا ، وكان ريموند أول شخص يهدد ، وقوّى سقوط الرها من موقف زنكي [(١)] ، وقد كان استعادة الرها سببا في الحروب الصليبية الثانية ، وصار الفرنجة يفكرون في الامدادات الجديدة ، لمحاولة وقف الضربات الجديدة [(٢)].

ان سقوط الرها أول ضربة عملية ضد القوّة الصليبية في بلاد الشام وهذه أول خطوة عملية في سياسة عماد الدين الشاملة لاستعادة بلاد الشام ، وهذا اهم حدث تاريخي على مستوى سياسة عماد الدين الاسلامية ٠

استمرار الفتح :-

بعد اعادة الرها لم يتوقف عماد الدين زنكي ، ولكنه استمر في الفتح ، فقصد سروج ، وعندما اقترب منها ، هرب الافرنج منها فملكها ، وجعل يمر باعمالها ومعاقلها ، فينزل عليه الناس ويسلمون اليه [(٣)] ٠

وفي شهر بيع الاخر ٥٣٩هـ/١١٣٤ ورد خبر بخروج عسكر حلب لمقاتلة فرقة من الفرنج وصلت الى ناحية بعلبك للعبث فيها فالتقيا بها ، فانتصر المسلمين على الفرنج [(٢)] ٠ وجرت من مؤامراة للأرمن في الرها ٥٤٠د فسار اليها زنكي وقضى على الفتنة [(٤)]

---

(١) Zoe, Oldenbourg : The Crusades , P. 320 .

(٢) Fisher : The middle East, P. 136

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٠ ٠

(٤) المصدر نفسه والصفحة ٠

وفاة عماد الدين زنكي :-

بينما كان عماد الدين يحاصر قلعة دوسر " جعبر " التي تطل على نهر الفرات وبينما كان نائما اغتاله غلام يدعى يرتقش في السادس من ربيع الاول عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م ، ولعله يكون باطنيا [١] ، وتولى ابنه نور الدين مكانه ، الذى اتخذ حلب عاصمة له ٠

فرح الفرنج بموت عماد الدين ، فقد استوعبوا تعزية بزواله عن مضرتهم [٢] ، فقد امضى خمسة عشر عاما يهدد الفرنجة تهديدا مستمرا ، وفكر خصومه بزواله أنهم يستطيعون التنفس ثانية ، وظنوا أنه وريثه سيكون أقل رعبا منه [٣] .

نور الدين محمود زنكي :-

هو ثاني أولاد عماد الدين [٤] ، نشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة ، وكان أبوه يقدمه على بقية أولاده ، لانه كان يرى فيه مخايل

---

(١) انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ٠ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص ٢٧٩ ٠ العماد الاصفهاني ٠ دولة آل سلجوق، ص ١٨٩- ١٩٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب ص ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٦ ٠ ابن الجوزى : مرآت الزمان ، ج٨ ص ١٩١ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص١٠٧ ، ١٠٨ ، الكامل ، ج١١ ، ص٤٥ ٠ ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٠٠ ٠

(٢) مكسيموس مونروند : الحروب الصليبية المقدسة ، ج١ ، ص ٢٥٨ ٠

(٣) Zoe Oldenbourg: The Crusades, P. 321 - 322 .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ٩ ٠

النجابة والذكاء ، كذلك تأثر بجلال وفضائل ابيه ، لكثرة ملازمته ، وتأثر بايمانه بخطته الشاملة المراعية لتوحيد البلاد وضم الصفوف للخلاص من المعتدين [1] .

وكان نور الدين يرافق والده في جهاده ، وتعلم الفروسية على يديه ، فاكتملت شخصيته زمن والده ، فانه مع فضل اسد الديه عليه ، اذ جمع له العسكر الشامي وسار معه الى حلب وملكه اياها ، وقد عرف بالحكمة والجود ، ونجاحه عائد لشخصيته الذاتية [2] .

وكان يحب مجالسة العلماء والصالحين ويستشيرهم في امود الجهاد وقصد بلاد العدو ، وكان يواظب على عقد مجالس الوعظ [3] . فلا عجب اذا بدا متقشفا ، ويرى في الاموال انما هي اموال المسلمين ويجب ان ترصد لصالحهم وتعد لاعداد الاسلام [4] . فأعماله يحكمها الاسلام بأوامره وتواصيه ، حيث قل في عهده من الصلحاء مثله [5] .

وقد أقام نور الدين الانظمة الاجتماعية لتعميق الدين في النفوس، والعناية بالمرضى والمصابين ، وأسس المدارس الكثيرة المتعددة ، التي تعلم العلوم الشرعية والقرآن والحديث والمذاهب الفقهية حتى اصبحت دمشق

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٧١ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ٢٦ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٢٧٨ .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢٢ .

في عهده مدينة المدارس [1]، كما بنى دارا للعدل فيها كان يجلس يومين في الاسبوع للنظر في المظالم [2] وانصاف المظلومين من الظلمة ولو انه ولده او امير عنده .

وبقدر ما كان متواضعا كان عظيم الهيبة ، شديدا في غير عنف ، رقيقا في غير ضعف ، يلزم أجناده بوظائف الخدمة الصغير والكبير ، ولم يجلس عنده امير من غير أن يأمره بالجلوس ما عدا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، وأما ما عداه فكانوا يقفون عنده حتى يأمرهم بالجلوس ، واذا دخل عليه الفقيه او الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلس الى جانبه ، أنه أقرب الناس اليه [3].

أما صفاته العسكرية ، فكان نور الدين يتمتع بالشجاعة الفائقة ، وهو في الحرب ثابت القدم حسن الخطة ، صلب الضرب ، يقدم اصحابه ، ويتعرض للشهادة ، وقد وصف بأنه يلقي بنفسه في المهالك [4]، لذلك كان يأخذ في الحرب قوسين وجعبتين للسهام ، ويباشر القتال بنفسه، وكان يندقع في الجهاد فيلقي الرعب في قلوب الصليبيين ، ورأوا فيه شجاعة وفروسية وحبا للحرب تقل عن والدة [5].

---

(١) صلاح المنجد : دمشق القديمة ، ص ١٣ .

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين، ج١ ، ص١٥، ١٨ . ابن الاثير : الكامل،ج١١، ص١٦٤ .

(٣) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ٣١٨ .

(٥) Zoe Oldenborg: The Crusades in the East,P. 323 .

وقد امضى نور الدين حياته وهو يتفرغ في تدبير امو الاجناد والتأهب للجهاد [١] ، ولم يعرف حماسه الديني العلك ، بل اتخذ الحرب المتصاعدة وفكرة الجهاد الدائم صفة العمل المقدس ، وبذلك اصبحت قوة الاسلام في زمنه بما لم يعرف مثلها الاسلام من قبل [٢] .

سياسة نور الدين : الاعداد والحشد :

كان يعتني بتدريب الجند في اوقات السلم فيمارس معلمهم الفروسية، لتتعود الخيل الكر والفر وطاعة راكبيها [٣] ، ويهتم بالسلاح الدائم للجند فكان يثبت اسماء الاجناد لكل امير في ديوانه سلاحهم حتى لا يهمل الامير في تسليح جنوده ، كما كان يهتم بتحصين المدن فيرمم القلاع والاسوار ويحصنها [٤] ويعتني بتحركات العدو،فبنى الابراج على الطرق وجعل من يحرسها ومعهم الحمام الهوادى لنقل الاخبار السريعة [٥] ،وفي المعارك كان يتروّى ويدرس النتائج المترتبة ولا يغرّه النصر ،واعتمد في حروبه على الهجوم الخاطف المفاجئ للخصم ، ويؤدب الخصم الصغير حتى لا يطمع فيه الكبير ، وهو في ذلك شديد الحيطة والحذر ، يظهر اعداءه

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥١ .

(٢) Zoe oldenbourg: The Crusades in the East,P. 348

(٣) ابو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ١٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢ ، ٥٢ .

بمظهر المقصرين بالنسبة لرعاياهم العاجزين عن حمايتهم المتآمرين ضدهم .

وكان يستعمل الحرب الاقتصادية ، فيمنع عن اعدائه المؤن والغلات [1] .
ويمنع خصمه من الاستقرار والراحة بل يهاجمه بسرعة قبل ان يلتقط الانفاس [1] . ويمنع وصول النجدات اليه ليثبت المقاطعة بين خصومه وينشر القطيعة بينهم [3] ، وكان يحرص ان لا يجمع خصمين ضده حتى لا يقسوا عليه [4].

ويفرق بين العدو ورعيته وجنده ، ويقدر ظروف خصومه وبخاصة من كان على حدود الفرنجة ثم يستمد كل وسيلة ضد اعدائه لتحقيق النصر [5].

وكان سياسته مع اخوانه الجنود والامراء تقوم على المحبة والوئام.
فكان يعمل دائما على جمع امراء المسلمين ويشعرهم بمسئوليتهم تجاه تحرير الارض من الاعداء [6]. وينمي الصداقة مع جيرانه المسلمين ، فيعقد المعاهدات ويرسل الرسل من اجل ذلك .

وقد اعتنى بعائلات وأبناء الشهداء ، فكان يقطعهم الارض [7] ، ويرتب لهم

---

(1) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ٣٠٤ .

(٣) ابو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٥٨ .

(٤) حسين مؤنس : نور الدين ، ص٨٧ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ص ٣٠٦ .

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٥ .

(٧) ابو شامة كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ٢٠ .

الرجال الذين يعتنون بها حتى يكبروا ، مما جعل الجنود يستميتون طالما ان عائلاتهم مضمونة ·

انقسمت دولة عماد الدين زنكي بين ولديه نور الدين محمود وسيف الدين غازي ، وملك الاول حلب وما حولها بينما الثاني الموصل ، وكان الحد الفاصل بين املاك الاخوين هو نهر الخابور (١) .

وقد ترتب على وفاة عماد الدين زنكي رد فعل قوي عند الصليبيين الذين رأوا في غياب عماد الدين عن ساحة المعركة فرصة سانحة لاستعادة ما فقدوه واستردده المسلمون · وقد أدى هذا الى تحرك الفرنجة في اماكن متعددة ، ولم يمض سبع ايام على توليته الحكم ، فقد تحرك ريموند وأرسل جيشين أحدهما الى حلب وآخر الى حماة ، وأغار على الناس وهم أمنون ، فقتل وسبى وتمادى في ذلك ، فخرج اليه اسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر ، فقاتل من ادرك من الصليبيين ، وانقذ كثيرا من الاسرى ممن كان الفرنجة قد اخذوه (٢) ، وشن غارة عليهم واستاق جميع ما كان للفرنج فيه ، وعاد الى حلب مظفرا (٣) .

عصيان الرها :-

كانت الرها من ضمن املاك سيف الدولة غازي اي انها تابعة للموصل فقد كان فيها عدد محدود من المحاربين ، مما دفع الارمن لمرسلة

---

(١) ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص ١١٢،١١٣، التاريخ الباهر، ص ٨٤، ٨ · ابن واصل: مفرج الكروب، ج١،ص١٠٦ ـ١٠٨، ابو شامة :كتاب الروضتين، ج١،ص١١٩ـ١٢٢ ·

(٢) Stevenson: The Crusades in the East,P. 136.

(٤) ابو شامة : كتاب الروضتين، ج١ ، ص ١٢٣ ·

جوسلين في تل باشر ، فراسلهم وحملهم على العصيان والامتناع على المسلمين وتسليم البلد [1]، فتوّجه اليهم ومعه بلدوين حاكم مرعش في غفلة وذلك تشرين اول ١١٤٦م/ ٥٤١هـ وتمكن من احتلال المدينة [2] ما عدا القلعة التي امتنعت بمن فيها من المقاتلين ، وكانت حاميتها من السلاجقة الاتراك ، فقاتلهم جوسلين ولكن بدون فائدة ، فأرسل جوسلين يطلب النجدة من اميرى انطاكية وطرابلس والوصية على عرش بيت المقدس " •

ولما بلغ الخبر نور الدين محمود زنكي وهو بحلب ، لم يقبل الانتظار او التريث او التعلل بالاعدار ، بل نهض في عسكره في زهاء عشرة ألف فارس ، وأسرع بكل ما يستطيع بحيث تعبت الدواب من شدّة السير [3] ولما وصل الرها حاصرها ، فاشتد الحال على جوسلين الثاني والصليبيين لانهم وقعوا بين نارين ، مقاومة فرسان القلعة وفرسان نور الدين من الخارج ، فما كان من جوسلين الثاني الا ان قرر الهرب مع فرسانه ، فلاحقوهم فرسان المسلمين وقتلوا ثلاثة أرباعهم ، وكان من جملة القتلى بلدوين حاكم مرعش ، كما أصيب جوسلين الثاني بجرح في رقبته ولم يتمكن من الوصول الى سمياط الا بصعوبة •

ودخل نور الدين مدينة الرها وعاقب المتأمرين و وأخذ جمعا كبيرا

---

(١) ابن واصل : مفروج الكروب،ج١ ،ص١١٠، ابن الاثير : الكامل ،ج١١، ص ١١٤،•

(٢) ابو شامة :كتاب الروضتين، ج١،ص١٢٥ ، ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص ١١٤ •

(٣) ابن الاثير : الكامل، ج١١ ، ص١١٤ ، الباهر ، ص ٨٦ : ابو شامة : كتاب الروضتين، ج١، ص١٢٥+ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١، ص ١١١ •

منهم اسرى ، ولم يبق من اهلها الا القليل [1]، وقد بقيت المدينة تابعة لنور الدين ولم يعارضه اخوه سيف الدين [2].

وكانت هزيمة الصليبيين في الرها اشد من هزيمتهم الاولى ، وكان من اثار هذه الحادثة ان غضب المسيحيون ، وثار شعور اهل الغرب ونادوا بضرورة تكاثف الجهود الصليبية في الشرق والغرب للقضاء على المسلمين وتأديبهم ، وبعث الروح المعنوية عند الصليبيين ، فبدأ بالاعداد للحملة الصليبية الثانية [3].

نور الدين والقوى الاسلامية تحول دون الصليبيين في صرخد وبصرى وحوران:-

منذ تولى نور الدين محمود حاول ان يركز جهوده لقتال الصليبيين ، وفي نفس الوقت يعمل على استمالة القوى الاسلامية المتعددة لكسب ودها ، وصداقتها من أجل تقوية الجبهة الاسلامية لمواجهة العدو الصليبي .

وطبقا للسياسة السابقة حاول استمالة حكام دمشق بهدف تهدئة النفوس ولم الشمل ، وترتب على هذه الجهود توقيع اتفاقية صلح مع معين الدين أنر في دمشق (أذار ١١٤٧م/ ٥٤١هـ) [4]، وحتى يؤكد نور الدين

---

(١) ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص١١٤ ، ١١٥، ابن واصل : مفرج الكروب، ج١،ص١١١، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج١،ص١١١ .

(٣) فايد عاشور : جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص٢١٠، ٢١١ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص ١١١، ١١٢ .

هـذا الاتفـاق واظهـار حسـن النوايـا ، فقـد تـزوّج من ابنـه معين الدين ، وكـان هدفـه جمع كلمـة المسلمين من اجل الجهـاد ، ولم يـدرك الصليبيـون خطـر هـذا التقـارب [١] ، وكـان معيـن الديـن صاحـب السلطـة العليـا فيهـا ، وهو الـذي يقـوم بتوجيـه سيـاسـة الاتـابك مجيـر الديـن آبق (الذي كان لا يزال صغيـرا) ٠

وبالرغم من التحالـف الـذي تـمّ بين دمشق ونـور الديـن بقي التحالـف مـع الصليبييـن من اجل ضغط ميـزان القـوى ، بقصـد الاستفـادة من الجانبين عنـد الضـرورة ، وآثـر معين الدين أنـر الاحتفـاظ بتحالفـه مع الطرفين ٠

ونقض الصليبيـون التحالـف عندمـا تحالفـوا مع حاكم بصـرى وصرخـد " التونتـاش " (٥٤١هـ / ١١٤٧م) الذي ذهـب الى بيت المقدس وطلـب المعونـة وعرض عليهم أن يتسلمـوا صرخـد وبصـرى مقابـل معونتهم لـه في الاستقـلال بحـوران التابعـة لدمشـق ٠ ووافـق بارونـات بيت المقـدس واستعـدوا لارسـال جيـش صليبـي الى طبريـا لتنفيـذ الخطة المتفق عليها [٢].

أرسـل معين الدين أنـر يحـذر الصليبييـن من مغبـة سياستهـم لانهـا ستـؤدي الى انهيـار التحالـف معـه ، فلـم يهتم الصليبيـون لتحذيره وزحـف بلدويـن الثالـث من طبريـا الى حوران في أيـار (١١٤٧م/ ٥٤١هـ) ، وخـرج معين الدين لسـد طريـق بصـرى وصرخـد في وجوههـم وطلـب نجـدة نور الديـن زنكـي ، فأجابـه [٣] ، فوصلـت قـوات نـور الديـن في السابـع والعشريـن مـن ذي الحجة ، فأقـام ايامـا ، ثم سـار نحـو صرخـد ، ولم يشاهـد أحسن من عسكره

---

(١) حبش : نور الدين والصليبيون ، ص ١١١ ، ١١٢ ٠

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ٠

(٣) المصدر نفسه والصفحة

وهيئته ومدته وتوفر عدته [1].

اجتمع الجيشان الدمشقي بقيادة معين الدين والجيش الحلبي بقيادة نور الدين ، واسرعا للاستيلاء على بصرى قبل أن يستولي عليها الصليبيون ، وأرسل من بصرخد اليهما يلتمسون الامان • وهكذا لم يستطع الجيش الصليبي ان يحقق اى هدف في هذه الجولة ، وعاد الجيش الحلبي والدمشقي الى دمشق فوصلاها يوم الاحد السابع والعشرين من المحرم ٥٤٢هـ/ حزيران ١١٤٧م • [2]

أما التونتاش والي صرخد الذى صانع الصليبيين واستعمالهم ضد ابناء أمته ودينه ، فانه بعد فشل الصليبيين في احتلال صرخد فانه خرج الى الفرنج ، ثم الى دمشق توهما منه انه يكرم ويصطنع ، وهي كان الخونة والعملاء يكرمون ؟ فلما وصل دمشق قبض عليه واعتقل واعتبر مجرما في حق الامة ، بعد الاساءة والارتداد عن الاسلام ، وعقد له مجلس حضره الفقهاء والقضاة ، وأوجبوا عليه القصاص ، فسملت عيناه، واطلق الى دار له بدمشق فأقام بها [3] ليبقى عبرة لغيره ، " وما ظلمناهم ، ولكن كانوا انفسهم يظلمون " •

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ص ١٣٠ •

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٩ •

(٣) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ١٣١ •

نور الدين يُفشل الحملة الثانية من احتلال دمشق :-

كان الهدف الاساسي للحملة الصليبية الثانية استرجاع الرها من المسلمين ، لكن فرنجة القدس اشاروا بمهاجمة دمشق مع انها راغبة في السلم معهم [1] ، وذلك لان الاستيلاء عليها يبعد عنهم الحروب الجديدة، وتصبح القدس هادئة مرتاحة دون قلق محمية بهذا الحصن المنيع الذي يفصل بينها وبين قوات اعدائها من المسلمين [2] ، والاقرب الى الواقع انهم اختاروها حتى يتجنبوا خطر الحرب مع نور الدين وعساكره [3] .

صوّر أمراء الفرنجة للملكين القادمين من فرنسا وألمانيا (كونارد ، لويس السابع) انهم بحركة سريعة يستطيعون اخذ دمشق فيحصلون على انتصارات واراضي مضى وقت طويل لم يحصلوا على شيْ منها .

سار جيش الفرنجة يتقدمهم البطريق حاملا صليب الخلاص واجتمعوا في مدينة طبريا [4] ، وجهّز الرهبان انفسهم وساروا بالاضافة الى العسكر، ترك الجميع طبريا وبدأ حصار دمشق في ٢٤ تموز ١١٤٨م السادس من ربيع الاول ٥٤٣هـ [5] .

قذف الصليبيون بأضخم جيش الى ساحة المعركة لمحاصرة دمشق ابان الحملة الصليبية الثانية ، ولم يكن يتوقع حاكم دمشق " معين الدين

---

(1) Stevenson : The Crusades in the East, P. 156.

(٢) مونروند مكسيموس : تاريخ الحروب المقدسة ، ص ٥٩ .

(٣) شاكر ابو بدر : الحروب الصليبية والاسرة الزنكية، ص ٢٦٦ .

(٤) مونروند مكسيموس : تاريخ الحروب المحدسة ، ج٢ ، ص ٦٠ .

(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ،ص٢٩٧-٣٠٠، ابن الاثير :الكامل، ج١١،ص٥٢ .

أنـر ، ان تكـون الحملـة تستهـدف دمشـق في حينهـا ، فلمـا اكتشف الحقيقة ، بـادر الى اصـدار الاوامـر الى ولاة الاقاليـم ان يبعثـوا المقاتلين ، وطلب النجدة من نـور الدين محمـود ، الـذى كـان قـد استهدفـه الصليبيـون ايضا .

توقفت كتائـب الصليبييـن اول الامـر جنـوب دمشـق على نحو اربعـة اميـال بالموضـع المعروف باسـم " منـازل العساكـر " ، فلاحـت اسـوار المدينـة وأبراجهـا من بين الاشجـار ، لكنهـم عجلـوا بالمسيـر الى قريـة المزّة لتوافـر المـيـاه فيهـا .

حـاول الجيـش الاسلامـي منـع تقـدم الصليبييـن ، ولكنـه اضطـر الـى الارتـداد ، فأحـرز الفرنـج نصـرا مؤقتـا ، وتقدمـوا لاحتـلال المدينـة ، وراح المقاتلـون المسلمـون يشنـون حـرب العصابـات ، فلـم يلبـث أن جـاء المـدد فـي اليـوم التالـي يتدفـق على الجيش الاسلامـي ، فقـام بهجـوم مضـاد رد بـه الصليبيـون عن الاسـوار ، وانسحـب الفرنـج الى السهـل الواقـع خـارج السـور الشرقـي .

استصحـب نـور الدين زنكـي معـه اخـاه سيـف الدين غازى صاحـب الموصل وأرسـل الى معيـن الـدول : " قـد أحضـرت معي كـل من يحمـل السلاح في بـلادي فأريـد ان يكـون نوابي بمدينـة دمشـق لاحضـر وألقـي الفرنـج ، فان انهزمـت دخلـت انـا وعسكـرى البلـد واحتمينا بـه ، وان ظفـرت ، فالبلـد لكم لا انازعكـم فيـه "[1] .

تـواتـرت الى الافرنـج اخبـار الجيش الاسلامـى ، فرحلـوا في اليـوم

---

(1) ابن الاثير : الكامل، ج١،ص١٣٠، الباهر، ص٨٩ . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١،ص١١٢، ١١٣، ابو شامة : كتاب الروضتين، ج١، ص ١٣٤ .

الخامس ، تراجع المحاصرون تراجعا كاملا ، وخلال اليومين التاليين كانت الامدادات تنصب في المدينة ، والمساعدة متوقعة من نور الدين وسيف الدين . وفي اليوم الرابع لم يهتم الفرنجة لتحدى المسلمين ، وتفوقهم ، وناقش الفرنجة موضوع التراجع ، وفي اليوم التالي هجر الفرنج معسكرهم يتبعهم الدمشقيون وهم عائدون [1] .

تسلل الصليبيون نحو الجليل ، ولكن فرسان المسلمين راحوا يضغطون على جناحي الجيش الصليبي ويمطرون جموعهم بوابل من السهام ، فتناثرت اشلاء الرجال والخيل على امتداد الطريق ، وهكذا ارتدت عساكر الصليبيين الى قواعدها بعد تكبدها خسائر جسيمة [2] .

ان كل ما حققته هذه الحملة أنها فقدت عددا كبيرا من رجالها وقدرا كبيرا من عتادها وتعرضت لهوان شديد [3] ، كما حددت النتيجة هجمات نور الدين وقوّت من عزيمته ، فافتتح جميع اقليم الرها بما فيها تل باشر ، وهزم ريموند صاحب انطاكية وقتل سنة ١١٤٩م وسقط الكثير من مدن الشرق في يد نور الدين ، وحاول بلدوين تجديد الحلف القديم والتقرب من القسطنطينية ، لكنه لم يستطع فزال الخطر الذى كان يهدد سوريا نتيجة ضعف الفرنجة وثقة المسلمين [4] ، وبقي السوريون الفرنجة وحدهم

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٩٧ ـ ٣٠٠، ابن الاثير : الكامل،ج١١،ص٥٢ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ١٣٣ .

(٣) خاشع المعاضيدى : الوطن العربي والغزو الصليبي ص١١٧ .

(٤) شاكر أبو بدر : الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ، ص ٢٦٩ .

في الميدان وتوقف سيل الحجاج السنوى الحامل معه المال والرجال لامد بعيد .
وقد برزت هذه الحملة الشكوك بين الصليبيين القادمين حديثا من الغرب ، وبين الصليبيين النازلين بالشرق ، وأنها أوقعت بين أمراء الصليبيين الغربيين ، فعزلت كل واحد عن الاخر ، وجعلت العلاقات بين المسيحيين في الغرب والبيزنطيين من المرارة ما كاد يؤدي الى القطيعة بينهم ، كما انها حملت المسلمين على الوحدة والتعاون ، وأنزلت ضررا بما اشتهرت به الصليبيون في القتال [1] .

وعرف نور الدين ان الصليبيين اناس لا يستطيعون الاتحاد فيما بينهم ، وبالتالي محكوم عليهم بالفناء ، فالحملة الثانية زاد من قوّة وتماسك المسلمين وجعلت الفرنجة يخسرون رصيدهم عند المسلمين المترددين الى الابد ، فقد رجع كونراد الى بلاده في أيلول ١١٤٨ ، وتأخر يومين وعاد في الربيع ١١٤٩، وبقي من الحملة الثانية برتراند بن الفونوكونت طولوز الذى مات في ظروف غامضة في قيسارية .

ارتفعت الروح المعنوية للمسلمين اثر فشل الحملة الصليبية على دمشق ، وتشجعت القوى الاسلامية وأخذت تهاجم الاملاك الصليبية لتسترد ما سبق اغتصابه ، وحاول صاحب انطاكية الانتقام من المسلمين ، فحشد قواته للهجوم على حلب ، ولكن نور الدين التقى بهم في يغرى ، دار قتال شديد ، كسر الصليبيون شر كسرة ، وأسر جماعة من مقدميهم ، ولم ينج الا القليل .

ارسل نور الدين البشرى الى اخيه سيف الدين غازى والى الخليفة

---

(١) خاشع المحاضيدى : الوطن العربي والغزو الصليبي ، ص ١١٨ .

العباسي المقتفي لامر السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، ورافق البشرى غنائم من الاموال والاسرى [1] .

وفي اواخر شهر جمادي الاخرة عام ٥٤٤هـ/ تشرين؟، ١١٤٩ان توفي سيف الدين غازي صاحب الموصل ، فتم اختيار شقيقه قطب الدين مودود بدلا منه ، وتمّ الاتفاق بين نور الدين وابن اخيه على أن يأخذ نور الدين حمص بينما يأخذ قطب الدين سنجار ، مما ادى الى اتفاق كلماتهم واتحاد أرائهم [2].

نور الدين يهاجم امارة انطاكية ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م ٠

كانت خطة نور الدين الاستراتيجية الشاملة تهدف الى تحرير بلاد الاسلام من الفرنج الصليبيين ، وها هو ينفذها مرحليا ، فلم يكن يرغب في أية لحظة في الانصراف عن الجهاد وطالما كان قادرا على جهاد العدو والانتصار عليه ٠ ففي صيف ١١٤٩م/ ٥٤٤هـ هاجمت قوات نور الدين الاقليم المحيط بقلعة حارم الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي ، فاحتلها ودمر ما حولها من ضياع ٠ أسرع ريموند دي بواتيه صاحب انطاكية بقواته لمنازلة نور الدين ، وكان نور الدين قد طلب من والي دمشق معين الدين أنر معاضدته ، فندب معين الدين جيشين العسكر الدمشقي بقيادة

---

(١) ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص١٣٤٠ ابن واصل : مفرج الكروب، ج١،ص١١٤ ٠

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ص١٣٨٠ الباهر، ص ٦٩٠ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١١٨ - ١٢٠ ٠

مجاهد الدين بزان بن مامين للمسير نحو نور الدين وبذل الجهود في طاعته ومناصحته ، فاجتمع لنور الدين سائر العساكر ستة آلاف فارس سوى الاتباع والسواد (1) ، وفي يوم الاربعاء الحادي والعشرين من صفر ٥٤٤هـ/ أخر حزيران ١١٤٩م ٠

أحاط المسلمون بالصليبيين من كل جانب وأبادوهم أولا عن أخر ، وكان من جملة القتلى ريموند امير انطاكية وربنو صاحب كيسوم ومرعش فضلا عن علي بن وفا زعيم الباطنية الذى كان مرافقا للقوات الصليبية (2) ٠

فرح المسلمون لمقتل ريموند أمير انطاكية الذى كان عاتيا من عتاة الفرنج ، وعظيما من عظمائهم (3) ، فحمل رأسه في الحال الى نور الدين الذى قام بارساله الى الخليفة العباسي في بغداد (4) ٠

تابع نور الدين التقدم نحو انطاكية فنزل بباب انطاكية ، وكان الرعب قد خيّم على اهلها فعرضوا على نور الدين ان يعطوه كل ما يملكون من أموال و متاع على أنّ يترك مدينتهم ويعطيهم مهلة ، فرتب نور الدين فرقة من جيشه للاقامة على انطاكية ومنع من يصل اليها ، وسار بقواته الى أفاميا ٠ وعلم أن الصليبيين في ساحل الشام اجتمعوا وساروا نحو انطاكية لانجادها ، فاقتضت الحال مهادنة من في انطاكية ، ورحل عن انطاكية بعد ان ملك كل ما حول انطاكية من الحصون والقلاع

---

(1) ابو شامة : كتاب الروضتين، ج1 ، ص ١٥٠ ٠

(2) ابو شامة : كتاب الروضتين، ج1،ص ١٥٠٠ ابن الاثير : الكامل،ج11، ص١٤٤، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج1 ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ٠

(3) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج1 ، ص ١٢١ ٠

(4) المصدر نفسه ص ، ابن الاثير : الكامل، ج11، ص ١٤٤، ١٤٥ ٠

والمعاقل [1] .

الاستيلاء على حصن أفامية ٥٤٥هـ / ١١٥٠م :-

كان حصن افامية مجاورا لحماة على تل عال ، وهو من أحصن القلاع وامنعها ، وكان الفرنج يهددون منه حماة وحمص ، لذلك رأى نور الدين بعد النجاح الذي لقيه في انطاكية وما حولها أن يملكه ، فتوّجه اليه ، فحاصره وضيّق على من به من الفرنج ، فاجتمع الصليبيين في بلاد الشام لانقاذ الحصن ، ولكن نور الدين استولى عليه قبل وصولهم ، فملكه ، وملأه ذخائر وسلاحا وجميع ما يحتاج اليه ، واستعدّ للقاء الفرنج قبل ان يصلوا ، فحين رأوا قوّة جيش المسلمين واستيلائهم على الحصن ، عادوا الى بلادهم ، وطلبوا من نور الدين المهادنة [2] .

نور الدين وجوسلين الثاني ٥٤٦هـ/ ١١٥١م :-

كان جوسلين صاحب تل باشر وعين تاب وعزاز وغيرها ، من أشد الفرنجة شجاعة واقواهم بأسا وأعظمهم مكيدة ، ويبدو أن نور الدين لم يستعد لمحاربته كما يجب بينما حشد جوسلين جمعا كبيرا من الفرنج ، ولما التقى الطرفان هزم الجيش الاسلام بقيادة نور الدين ،

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين، ج١،ص ١٥٠ - ١٥١ • ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٥ •

(٢) ابو شامة: المصدر نفسه ص١٥٩، ١٦٠ • ابن واصل: مفرج الكروب،ج١، ص ١٢٣ • ابن الاثير ، ج١١، ص ١٤٩ •

وقتل وأسر من المسلمين خلق كثير [1]

غضب نور الدين من الهزيمة التي لحقت بقواته ، وعظم عليه الامر ، وشرع في الاعداد من اجل الانتقام ، واعتمد هذه المرة على الحيلة ، فرّغب جماعة من التركمان ، ووعدهم الوعود الجميلة ان أتوه بجوسلين أسيرا او عقيرا ، وقام هؤلاء بمراقبته ، واتفق أن قام وخرج للصيد فظفرت به طائفة منهم ، وحاول أن يغريهم بالمال ولكنهم رفضوا ، وحمل جوسلين الثاني الى نور الدين ، وكان اسره اعظم الفتوح ، فقد اصيب النصارى كافة بأسره [2] ، وشرع نور الدين في الاستيلاء على بلاده (وهي تل باشر ، عين تاب ، عزاز ، تل خالد ، قورس ، الروانذن ، برج الرصاص ، حصن البارة، كفرسود ، كفرلاثا ، دلوك ، مرعش ، نهر الجوز) ٠ وكانت خطة نور الدين الاستيلاء على هذه الحصون ، فكلما فتح واحدا نقل اليه من كل ما تحتاج اليه الحصون خوفا من نكسة تلحق المسلمين من الفرنج ، فتكون بلادهم غير محتاجة الى ما يمنعها من العدو [3]٠

سقوط عسقلان في يد الصليبيين ٥٤٧هـ/ ١١٥٣م وتهديد دمشق :-

هاجم الصليبيون اخر المعاقل الفاطمية في فلسطين مدينة عسقلان، فأخذوها ، وقد حاول الفرنج من قبل فلم يستطيعوا ، فقد كان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلد ، بينما الخلفاء يحكمون اسميا ، وبقيت عسقلان في يد

---

(١) ابن الاثير : الكامل،ج١١،ص ١٥٤ ٠ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١،ص ١٢٣ ٠

(٢) ابن الاثير المصدر نفسه والصفحة ٠ ابن واصل المصدر نفسه والصفحة ٠

(٣) ابن الاثير : ص١٥٥ ، ١٦٣ ٠ ابو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ١٤٥، ١٩٣ ٠

الفاطميين الى ان قتل الوزير ابن السلار واختلفت الاهواء في مصر ، فاغتنم الصليبيون الفرصة وحاصروها ، وقاتلهم الاهالي ، واوشك الفرنج على الانسحاب لكن وقع الخلاف بين اهل عسقلان وعظم واشتد وتفاقم ، فطمع الفرنج وزحفوا وقاتلوا فلم يجدوا من يمنعهم فاغتصبوا المدينة [(1)] .

لقد كان ضياع عسقلان تهديداً لمصر ، فقد فتح طريق الصليبيين وطمعهم لها ، مما شجعهم للاستعداد لغزوها .

لقد تألم نور الدين كثيرا لما حل بعسقلان ، فهو لا يمكنه الوصول اليها ، وهناك دمشق التي تتوسط بينه وبينها ، ودمشق ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها فكيف تدافع عن المدن الاخرى ، وكان الصليبيون تأتي رسلهم وتأخذ القطيعة ، [(2)] وبمعنى اخر يذلون اهلها أيما اذلال بحيث انهم استمرخوا عبيدهم واما هم النصارى وخيروهم بين المقام والعودة اليهم [(3)] ، ولذا ، فقد تدهور الوضع في دمشق على حاكمهم بسبب ضعفه ، وعدم نهوضه للحد من تدخل الصليبيين في شؤونهم الداخلية ، علاوة على وجود امثاله من الحكام الضعاف يشجع الاعداء على أخذ بلاد الاسلام ، ولذلك اتصفت ثورة اهل دمشق بأنها عمل مشروع وواجب ، وشعر اهلها لم يفعلوا بذلك يلحق بهم اثم كبير لسكوتهم على باطل يضر بالاسلام [(4)] .

---

(1) ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص١٨٨، ١٨٩ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص١٢٦ .
ابو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص١٩٥، ٢٠٠، ٢٠١ . ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل، ج١١،ص١٩٧ . ابن واصل، مفرج الكروب، ص ١٢٦ .

(٣) ابن الاثير : المصدر نفسه والصفحة . ابن واصل نفسه والصفحة .

(٤) فايد عاشور : جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ٢٢٣

وعلم نور الدين بما جرى في دمشق ، وخشي على اهل دمشق من الفرنج ، وفكر في طريقة سهلة لاخذ دمشق وانقاذها ، وكان يخشى ان هو قصدها وأخذها بالقوة استمال حاكمها الفرنج على حربه ، لذلك لجأ الى أسلوب الحيلة والاستمالة ، فأخذ يلاحق حاكمها مجير الدين آبق ويظهر له المودة ، ويرسل له الهدايا ، حتى وثق به ، ثم أخذ يكاتبه ويبعد عنه معاونيه متهما اياهم برغبتهم في التعاون مع نور الدين، فيقوم مجير الدين بابعادهم ، حتى اصبح وحيدا في دمشق لا يعاضده أحد من الامراء ، ثم كاتب الأهالي ووعدهم بالاحسان اليهم ، فاستمالهم اليه، ثم نظم قواته ورتبها ، فزحف على دمشق وحاصرها ٠ أرسل مجير الدين الى الفرنج وبذل لهم الاموال ووعدهم بتسليم بعلبك اليهم اذا انجدوه وابعدوا نور الدين عن دمشق ٠ (1)

وكتب نور الدين الى مجير الدين آبق هدفه من حملته على دمشق، انما تهدف اعادة ما اغتصبه الفرنج من الاموال من الفلاحين وكان عليه أن لا يستصرخ الفرنج لقتاله ٠ فرد عليه " ألسيف بيننا وبينك وسيوفنا من الافرنج ، ما يعيننا على دفعك أن قصدتنا ونزلت علينا " (2) ٠

وجرت الامور كما يحب نور الدين ، فعندما اقترب من الأسوار ثار الاهالي وفتحوا الباب الشرقي لمدينة دمشق ، فدخل نور الدين، وتحصن مجير الدين في القلعة ، فراسله نور الدين بتسليم القلعة على أن يعطيه اقطاعا في حمص ، فأجاب وسلم القلعة ، وسار الى حمص ، ولكنه

---

(1) ابن الاثير : الكامل، ج11،ص198 ٠ ابن واصل: مفرج الكروب،ج1، ص126، 127 ٠

(2) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص 309 ٠

ارسل الى اهل دمشق يدعوهم لمؤازرته من أجل العودة فطرد من حمص وذهب الى بغداد حيث توفي فيها ٠ وصفت الممالك الشامية جميعها لنور الدين [١]، الذى كان شديد الحرص على المسلمين ، حريص على تقوية المسلمين ودفع العدو عنهم ومحاربة المتعاونين مع العدو ضد المسلمين ٠

وأعد نور الدين جيشه وأخذ حصن أفليس (قرب معرة النعمان) (عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م) ، وهو في غاية المناعة والحصانة ، وقتل كل من كان فيه من الافرنج والارمن ، وحصل العسكر على المال الكثير ٠ [٣]

وحاصر نور الدين حصن حارم ، عام (٥٥١هـ) ، فاجتمع الفرنج وساروا نحوه ، فأشار عليهم صاحب الحصن أن لا يقاتلونه حتى لا يأخذ الحصن وفاوضوه ان يأخذ مناصفة فقبل الموادعة [٤]. على ناحية حمص وحماة من طرابلس وبيت المقدس ، فتوّجه الى (١٣ ربيع الاول عام ٥٥٢هـ) ليرهب الاعداء [٥].

شعر الفرنجة بتحركات الجيش الاسلامي ، فأرادوا تعزيز الحدود المجاورة لحدود دمشق والمؤدية الى مملكة بيت المقدس ، فأرسلوا سبعمائة فارس من ابطال فرسان القديس يوحنا والهيكليين الى بانياس ، وخرج لهم الجيش الاسلامي في الثالث عشر من ربيع الاول ٥٥٢هـ/ ١١٥٨م ، فأبادوهم،

---

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه، ص ٣٢٠٠ ابو شامة :كتاب الروضتين،ج١، ص ٢٢٠
(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١،ص١٢٧ ٠ ابن العديم :زبد الحلب، ص ٣٠٦٠
(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج١١ ، ص ٨٤ ٠
(٥) ابو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ٢٦٨٠ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٨ ٠

ومن انضم اليهم من حماة بانياس ، وغنم المسلمون الكثير ، وأرسلت الرؤوس والأسرى الى دمشق ، وجماعة منهم الى بعلبك ، فضربت هناك اعناقهم لرفع معنويات سكان تلك المناطق [1]، وفي نفس الوقت اجتمعت مع اسد الدين جماعة كبيرة من التركمان وظفروا بسرية وافرة من عساكر الافرنج في الشمال [2].

اجتمع نور الدين مع أسد الدين وقرروا محاربة من في بانياس وسار الجيش لحصارها ، ورجع نور الدين الى دمشق وأحضر ما يحتاجه الجيش من مناجيق وسلاح [3].

تقدمت سرية من الفرسان الافرنج تقدر بعشة فارس لمباغتة نور الدين ، فالتقى بهم أسد الدين وقتل معظمهم وأرسل الاسرى ورؤوس القتلى الى دمشق [4].

هاجم نور الدين المدينة بشدّة ، وحدثت ثقوب في الاسوار ، واطلقت النار فيها ، ودخلها جنود نور الدين ، وقتل من فيها ويئس الفرنجة من عمارها : وعلم نور الدين ان الفرنجة ومعسكرهم بين طبريا وبانياس فبادر اليهم ، وحمل عليهم المسلمون ، وترجل نور الدين وترجل معه الابطال فانهزموا ولم يفلت منهم غير عشرة افراد ، وغنم المسلمون اسلابهم وكان ذلك في ٢٨ ربيع الاول عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٨م ٠

---

(١) ابن القلانسي : المصدر نفسه ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ٠

(٢) المصدر نفسه والصفحة ٠

(٣) المصدر نفسه ص ٣٤٠ ٠

(٤) المصدر نفسه والصفحة٠ ابو شامة :كتاب الروضتين ، ج١، ص ٢٧١ ٠

وصلت الرؤوس والاسرى الى دمشق ، كل أسيرين على حمل حاملين راية من راياتهم ، ومعها جلود رؤوسهم ، أما المقدمون وولاة الاعمال فكل واحد على فرس وعليه الزردية والخوذة وفي يده راية ، واما الجنود فكل ثلاثة او أربعة بحبل [1] ، ان ارسال الاسرى كان مع أسد الدين شيركوه ومعه ألف اسير ، هاجمه الفرنج في الطريق ، فهزمهم ، واتى بهم الى دمشق [2]. وقد كان لاستعراض الاسرى في دمشق اثر كبير على معنوية الشعب في دمشق وفي رفع معنوياتهم ، وتقوية الثقة في نفوسهم ، وبالتالي شحنهم بالوفاء والاخلاص للوطن والامة .

نور الدين والدولة الفاطمية :-

حدث في مصر في هذه الفترة ظروف صعبة دفعت نور الدين زنكي الى ارسال قواته ثلاث مرات ، في مصر لانقاذ الموقف ، خوفا على البلاد من السقوط بيد الصليبيين ورغبة في تكوين جبهة متحدة بين الشام وبلاد الجزيرة ،لاستثمار طاقاتها ضد الغزاة الصليبيين الذين اغتصبوا بعضا من مدن الشام .

فقد حدثت في مصر ست ازمات اقتصادية بحدود الثلاث والعشرين سنة ، التي سبقت الدولة الفاطمية ، وكانت تلك الازمات قاسية جدا ادى بعضها الى حدوث اوبئة ومجاعات كانت تفتك بالناس ، وكان بعضها متعلق بسوء النظام الاقتصادي وتلاعب الوزراء بأموال الدولة [3].

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٢ .

(٢) ابو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ص ٢٧٣ .

(٣) خاشع المعاضيدي: الوطن العربي والغزو الصليبي . ص ١٤٦ .

وكانت القدس بيد الفاطميين حين اغتصبها الصليبيون عام ١٠٩٩هـ / / ٤٩٢هـ ولم تستطيع الحامية الفاطمية من الصمود امامهم ، وحاول الفاطميون استردادها ولكن دون جدوى بل انهم فقدوا عسقلان عام ١١٥٣م/ ٥٤٧هـ ،ولهذا اصبحت مصر هدفا لاطماع الصليبيين ، وساعدت الاحوال الداخلية في مصر في نهاية الدولة الفاطمية ، فقد شغلت الوزراء صراع المصالح عن التفكير في مصالح الوطن مما شجع عموری ملك بيت المقدس على غزو مصر •

ففي سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢ حصل اضطراب بسبب اختلاف الوزراء وضعف الخلفاء ، وخلاصته ان شاور اصبح وزيرا للخليفة العاضد الفاطمي ، فأظهر الوزير مقدرة في ادارة البلاد ، واستمال الرعية ، وعزل شاور وتولى الوزارة العادل بن صالح بن رزيك ، فما كان من شاور الا ان جمع جموعا كثيرة وسار الى القاهرة ، فهرب الوزير والقى القبض عليه وقتل واستلم مكانه شاور ، فعاد الى الوزارة ثانية [1] ، ولقّب نفسه بأمير الجيش ، ولكن الامير ضرغام نازعه الوزارة وظهر امره ، واستلم الوزارة وانهزم شاور الى الشام [2].

أكرم نور الدين شاور باعتباره استجار به ، فأحسن اليه وانعم عليه ، ثم أخذ شاور يلح على نور الدين في طلبه بأن يرسل معه جيشا الى

---

(١) ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص ٢٧٤، ٢٩٠، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥ ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ •

(٢) ابن الاثير : المصدر نفسه ٢٩١ ـ ٢٩٨• ابن واصل: ففرج الكروب،ج١، ص ١٣٧•

مصر ليعيده الى الوزارة في مصر ، ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات البلاد ، ويكون الامير أسد الدين شيركوه مقيما بعساكره في مصر، ويتصرف بأمر نور الدين واختياره ، ويكون شاور نائبا عن نور الدين ويقنع بما يعينه له نور الدين ، وتردد نور الدين بين الاقدام والاحجام ، ثم قوى عزمه على ارسال الجيش ، وكان هوى أسد الدين في ذلك ، وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي بمخافة ٠

سار أسد الدين شيركوه بقوات نور الدين الى مصر في شهر جمادى الاولى ٥٥٩هـ ابريل ١١٦٤م ومعه ابن اخيه صلاح الدين وكان فى السابعة والعشرين من عمره وتقدم نور الدين الى شيركوه وطلب منه اعادة شاور الى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه [(١)] ٠

وصلت قوات نور الدين بقيادة أسد الدين الى بلبيس ، فالتقى بعسكر المصريين بقيادة ناصر الدين (شقيق ضرغام) ، فانهزم وعاد الى القاهرة ، وتقدم أسد الدين بقواته الى القاهرة في اواخر جمادى الاخرة عام ٥٥٩هـ/ نيسان ١١٦٤م ، حاول ضرغام الخروج من القاهرة فقتل ، وهكذا عاد شاور الى الوزارة وأقام أسد الدين مع عساكره خارج القاهرة، وبعد ان اطمأن شاور على الوزارة ، تراجع عن كل وعوده الى نور الدين ، فارسل الى أسد الدين رفض طلبه ، وطالبه بتنفيذ ما اتفق عليه ، فلم يجبه شاور ، وأيقن شاور أن اسد الدين لن يترك البلاد ، فأرسل شاور الى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ملك مصر [(٢)]٠ وأيقنوا بالهلاك

---

(١) ابن الاثير : الكامل، ج١، ص٢٩٨، ٢٩٩، ابن واصل: مفرج الكروب،ج١، ص١٣٨ ٠

(٢) ابن الاثير : المصدر نفسه والصفحة٠ وابن واصل: المصدر نفسه ، ص ١٣٩ ٠
ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥ ، ص٣٤٧ ٠

ان امتلك نور الدين بلاد مصر ، فلما أرسل لهم شاور بطلب المساعدة على اخراج أسد الدين من البلاد المصرية ، جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا في امتلاك الديار المصرية، ولما علم بذلك نور الدين سار بقواته الى اطراف البلاد من الناحية الشمالية الخاضعة للفرنج ليمنعهم من التوجه الى مصر ، ولكن ملك القدس سار الى مصر (1) ، وتجمع لدى الفرنج جمع كبير وصلوا لزيارة بيت المقدس ، وعندما اقترب الصليبيون من مصر انسحب أسد الدين بقوته الى مدينة بلبيس وجعلها له ظهرا يتحصن به ٠

اجتمعت القوات الصليبية مع القوات الفاطمية وهاجموا أسد الدين في بلبيس وحاصروه بها ثلاثة أشهر دون جدوى ، فلم يبلغوا منه غرضا ، ولا نالوا منه شيئا ، وفي هذه الاثناء قام نور الدين ونستولى على حازم وتوجه الى بانياس ، وقد قام بذلك ليشغلهم عن ناحية ويجبرهم علىّ الانسحاب من مصر ٠ وقد حدث ما أراد فقد راسلوا أسد الدين في الصلح والعودة الى الشام ومغادرة مصر ، على أن يعود ملك القدس عموري الاول بقواته الصليبية الى بيت المقدس ، ٥٦١هـ/ ١١٦٤ (2) ٠

قوات نور الدين للمرة الثانية في مصر بقيادة أسد الدين ٥٦٢هـ/ ١١٦٤م :ـ

بناء علىّ طلب الخليفة الفاطمي العاضد الذى كتب الى نور الدين

---

(1) ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص٢٢٩، ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص ١٣٩ ٠
ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص٣٤٧ ٠

(2) ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص ٣٠٠، التاريخ الباهر، ص ١٢٢ ، ابن واصل: مفرج الكروب، ج١ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ٠

يستنجده على شاور الذي استبد بالامر وظلم وسفك الدم [1] ، وخشية نور الدين من وقوع مصر في قبضة الصليبيين ، وزيادة قوة ، ورغبة من نور الدين جعل مصر في الجانب الاسلامي لتقوى الجبهة الاسلامية ، أعدّ نور الدين القوات اللازمة وسيّرها بقيادة أسد الدين شيركوه وسيّر معه ألفي فارس ، وسار معه صلاح الدين بن نجم الدين أيوب مع عمه [2].

سار أسد الدين شيركوه الى مصر على البر وعبر نهر النيل ، ونزل بالجيزة مقابل القسطاط .

وصل الصليبيون واجتمعوا بعساكر شاور وساروا جميعا يقصدون الجيش الشامي والتقى الطرفان ، في ٢٥ من جمادى الاخرة ٥٦٢هـ/ أذار ١١٦٧م في مكان يعرف بالبابين ، وقبل الدخول في المعركة رغب الصليبيون في الاتفاق مع شاور ومساومته على أجرهم ، فتعهد لهم بدفع اربعمائة ألف دينار ، ويدفع نصف المبلغ سلفا ، وكان أسد الدين قد جعل صلاح الدين في القلب ، ولما تقاتل الطرفان ، حمل الفرنج على القلب ، فقاتلهم صلاح الدين قتالا شديدا وأنهزموا بين ايديهم حسب الخطة التي وضعها أسد الدين ، فتبعهم الفرنج ، فحمل اسد الدين فيمن معه ، وقاتل الفارس والراجل ، فهزمهم ، ووضع السيف منهم ، فأثخن واكثر القتل والاسر ، فلما عاد الفرنج من المنهزمين ، ورأوا عسكرهم مهزوما والارض منهم قفرا ،

---

(١) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٣٤٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

انهزموا ، وهكذا هزم ألفي فارس عساكر مصر والصليبيين [1] بفضل شجاعة وخطة أسد الدين ، ولو توّجه نحو القاهرة لاعادها ، ولكنه توجه نحو الاسكندرية فتلقاه أهلها بالفرح والسرور ، فولى عليها صلاح الدين [2] ٠

وبعد الهزيمة في البابين ، جمع الصليبيون عسكرهم وساروا الى الاسكندرية وحاصروا صلاح الدين واشتد الحصار وطال حتى بلغ اربعة أشهر وأهلها يقاتلون [3] ، ولما بلغ أسد الدين شيركوه ، جمع عرب البلاد وسار الى الاسكندرية ، فرحل عنها شاور وحلفاؤه ، ثم عرضوا عليه الصلح والعودة الى الشام مقابل تبادل الاسرى وخمسين الف دينار ، فوافق أسد الدين على شريطة ان يعود الصليبيون الى بلادهم ولا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة ، فأجابوا الى ذلك [4] ، وانسحب أسد الدين الى الشام ، وعموري الاول الى القدس ليستمتع شاور بالحكم في مصر لوحده ٠

قوات نور الدين في مصر للمرة الثالثة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م :-

رأى الصليبيون سوء الاحوال في مصر ، وضعف الخلافة فيها ، ونور

---

(١) ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص٣٢٥، ٣٢٦، ابن واصل: مفرج الكروب ، ج١، ص ١٥٠ ، ١٥١ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج ٥ ، ص ٣٤٨، ٣٤٩ ٠

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ص ٣٢٦، ابن واصل : المصدر ص١٥١، ابو المحاسن ، المصدر ص ٣٤٩ ٠

(٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ ٠

(٤) ابن الاثير : الكامل،ج١١،ص٣٢٦، ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص ١٥٢ ٠

الدين بعيدا عنها ، ولهم فيها اعيان يرقبون الوضع ، لذلك جمع ملك القدس عموري رجاله وتأهب للخروج فوصل بلبيس في صفر (٥٦٤هـ) ونهبوا وقتلوا وسبوا وأسروا وأحرقوا ، ثم رحلوا عنها الى القاهرة [1] ، ثم امر شاور الناس بالانتقال الى القاهرة ، وعلم شاور أن البلاد ذاهبة لا محالة ٠ فأخذ شاور يكتب الى نور الدين ، وكذلك الخليفة الفاطمي العاضد ، وأرسل شعور النساء ، فجهّز نور الدين جيشا بقيادة أسد الدين ، وأعطاه مائتي الف دينار ، واختار من العسكر الفي فارس واخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وأعطى كل فارس عشرين دينارا معونة ، ولما اقتربوا من القاهرة وعلم بهم الصليبيون رحلوا عن مصر خائبين وكفى الله المؤمنين القتال٠

ووصلت الاخبار بذلك الى نور الدين فأمر بضرب البشائر ٠ وفي اليوم الرابع من ربيع الاخر ٥٦٤هـ/ مارس ١١٦٩م وصل اسد الدين الى القاهرة فاستدعاه الخليفة العاضد الى القصر واجتمع معه ، وخلع عليه ، وسر أهل مصر ، وحاول شاور ان يتأخر على مصر ثانية مبلغ ذلك أسد الدين فأمر بالقبض على شاور ، وجاء توقيع المصريين يطلبون رأس شاور فجُزّت وأرسلت اليهم [2] ٠ وعين أسد الدين وزيرا في السابع عشر من ربيع الاخر عام ٥٦٤هـ / ١١٦٩م٠

تولى اسد الدين شيركوه الوزارة لاخر الخلفاء الفاطميين العاضد ثلاثة اشهر ، وتوفي في الثامن والعشرين من جمادي الاخرة من عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٩م وفوّض الامر من بعده الى ابن اخيه صلاح الدين الايوبي٠

---

(١) ابن الاثير : المصدر نفسه ص ٣٣٦، ابن واصل: المصدر نفسه ص ١٥٦، ١٥٧ ٠

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٤٠ ٠

وهكذا تمكن نور الدين من ضم مصر الى بلاد الشام، وبذلك طوّق مملكة بيت المقدس، ووحد المسلمين، فاصبحوا كتلة واحدة لمواجهة الصليبيين[1]، كما انقطعت عن الفرنجة الاستفادة من التجارة الشرقية، ومنعوا من الاموال التي كانوا يأخذونها من مصر ، وأغلقت الموانئ المصرية امامهم ، وأصبحوا محاطين بالمسلمين من كل جانب [2] ، وأصبحت مصر والشام وحدة واحدة وجيوشهما متفقة ، بأمكانها محاربة الصليبيين في عدة جبهات [3].

وفي العام التالي ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م توفي قطب الدين مردود (شقيق نور الدين) والي الموصل ، وجاء ابنه عماد الدين شاكيا الى عمه اغتصاب حقه في الحكم من قبل اخيه سيف الدين وأنه احق منه بالملك [4]، كما ان الحاكم الفعلي المستبد فخر الدين عبد المسيح ، عندما سمع نور الدين قال : أنا أولى بتدبير ابني أخي وملكهم [5] ، وجهّز جيشا واتجه الى الجزيرة وعبر الفرات وقصد الرقة في مستهل عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م فملكها، ثم سار الى الخابور وملكها كما ملك نصيبين ، ومنها الى سنجار، واعطاها لابن اخيه عماد الدين الذى كان زوجا لابنته ومرافقا له

---

(١) المصدر والصفحة ابو شامة : كتاب الروضتين: ج١، ص ٣٩٩، ٤٠١ .

ابن واصل : مفرج الكروب : ص ١٦٣ .

(٢) باركر : الحروب الصليبية، ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) مونروند مكسيموس: تاريخ الحروب المقدسة ، ج٢ ، ص ٧٦ .

شاكر ابو بدر : الحروب الصليبية والاسرة الزنكية، ص ٣٤٤ .

(٤) سبط الدين الجوزى: مرأة الزمان ، ج٨ ، ص ٢٨١ .

(٥) ابن الاثير : الكامل، ج١١ ، ص ١٤٦ ، ابو شامة كتاب الروضتين ج١ ، ص ١٧٥ .

في حملته [1]، فتقدم الى الموصل عابرا دجلة ، فنزل حصن نينوى ، وهناك راسل سيف الدين غازي يخبره عن سبب قصده للموصل ، وهو خلاص المسلمين مما كان يفعله عبد المسيح معهم [2]، وتشدد نور الدين تجاه معالجة الموقف ، فقد لقى تأييد امراء المدينة له ، فعزموا مجاهرة فخر الدين عبد المسح بالعصيان وتسليم البلد الى نور الدين ، مما جعل فخر الدين يراسل نور الدين ليسلم الموصل اليه على ان يقره بيد سيف الدين ويطلب لنفسه الامان ، فأجابه الى ذلك وشرط ان يأخذه الى الشام ويمنحه الاقطاع فيها [3] وتسلم نور الدين الموصل في الثالث عشر من جمادى الاول من ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، وأقام فيها اربعة وعشرين يوما ، وأقرّها على ابن اخيه سيف الدين غازي كما اقطعه جزيرة ابن عمر [4]، وعيّن على قلعتها نائبا عنها سعد الدين كمشتكين ، وانتقلت معها السلطة الفعلية اليه ، ولم يبق لابن اخيه عليها سوى ظاهرها [5].

وهكذا حقق نور الدين خطته الشاملة على ثلاثة مراحل: ففي المرحلة الاولى التفت الى مقاومة النشاط الصليبي في الشام ، وشمل تحركه

---

(١) ابن الاثير : الباهر، ص١٥٢ ، ابن العديم: زبدة الحليب، ج ، ص٣٢٢ .

ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢ ، ص ٢٦٣ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٣٥٠ ابن خلدون: تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٠ .

(٣) ابن الاثير : الباهر، ص ١٥٣، الكامل ، ج١١، ص١٤٧ .

(٤) ابن الاثير : الباهر، ص ١٥٣ .

(٥) ابن الاثير : الباهر :، ص ١٥٤، ابن خلدون: تاريخ، ج ٥، ص ٢٥٠ .

السريع مقاومة عصيان الرها وغزو بصرى وفتح حصن أقاميا وغيرها .

وضم في المرحلة الثانية شطرى الشام وأقام الوحدة بينهما ، وخلصّت دمشق من مجير الدين صاحب الموقف المتخاذل ، وهذه اعطته قوّة ومناعة في مقارعة الصليبيين .

اما المرحلة الثالثة في بناء الوحدة ضد الصليبيين ، فكان ضم مصر، وهي القاعدة المهمة في تأمين الشرق ضد الصليبيين ، وقد نجح في ذلك نجاحا فاق كل تقدير ، ووضع الصليبيين بين شقي الرحى مما عجلّ في نهايتهم .

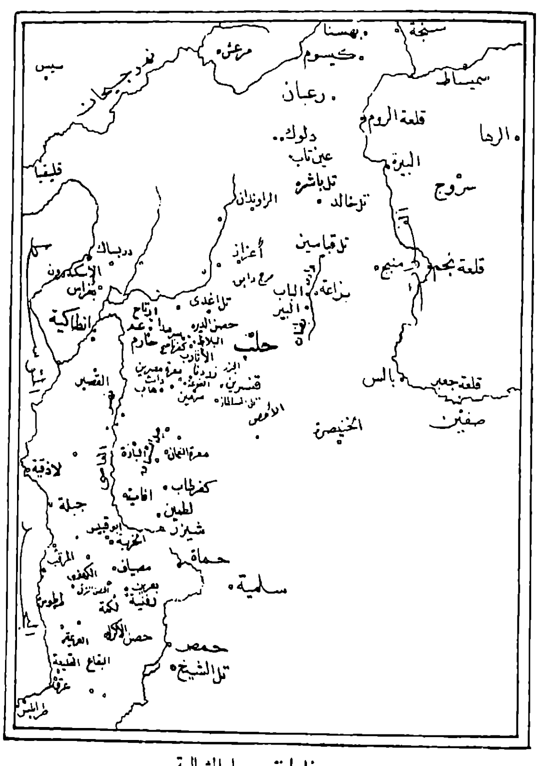
وزاد في قوة المسلمين بالاضافة لما ذكر ضم الموصل الفعلي بحيث اصبحت الوحدة الاسلامية قوّة متماسكة تشمل شمال العراق ومعظم بلاد الشام ومصر .

وضم صلاح الدين اليمن اثر خروج عبد النبي بن مهدى على الخلافة العباسية باذن من نور الدين زنكي في مستهل رجب عام ٥٦٩هـ/ ١١٧٣ واليمن بجانب اعادتها للخلافة ، فهي على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لموقعها وتجارتها .

ولم يكد نور الدين محمود زنكي ان ينهي مشروع توحيد الجبهة الاسلامية المواجهة للصليبيين في الشام ومصر ، والجبهة المساندة كالموصل واليمن حتى وافته المنية في شوال من عام ٥٦٩هـ/ أيار ١١٧٣م ، قبل ان يجني ثمار تلك الجهود التي بذل الغالي والرخيص من اجل تحرير بلاد الاسلام من الغزاة الصليبيين .

وتولى الامر بعد ابنه الملك الصالح اسماعيل الذى لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره ، مما اثار اطماع الطامعين في السلطة من آل زنكي

وغيرهم لولا أن قيّض الله للأمة رجلا فارسا ، فيه من شجاعة عماد الدين وتخطيط نور الدين ، وعنده الذكاء والعبقرية ما جعله يكمل دورهما ، ألا وهو صلاح الدين الايوبي ٠



خارطة سوريا الشمالية

K. M. Setton, A History of The Crusades. Vol. 1: عن



خارطة إقليم الجزيرة

كي. لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية

الفصـــل السابـــع

الدولـــة الايوبيـــة ودورهـــم في مقاومـــة الصليبيين

" التركيز على دور صلاح الدين في استرجاع بيــت المقــدس "

. . . .

. . . .

. . . . . .

. . .

. .

.

.

.

الدولة الأيوبية ودورها في مقاومة الصليبيين :-

صلاح الدين بن أيوب بن شاذى ، وجدّه شاذى قدم من قرية في أقصى حدود أذربيجان يقال لها " دوين " في اقليم آران وكان من الاكراد الرّوادية ، ونزل مع ولديه أيوب وشيركوه تكريت ، وحمل شاذى مع بهروز أحد رجال الشحنة (مدير الشرطة المحافظ على الامن)، فجعله على أمر قلعة تكريت ، ولما مات تولى ابنه الاكبر ابنه ايوب مكانه فنهض بها .

وقد شغل أيوب " والد صلاح الدين " مناصب عسكرية عدّة، فقد تولى منصب حاكم قلعة تكريت ، وحاكم قلعة بعلبك ، وأحد كبار قادة صلاح الدين ، عينه حاميا لدمشق ، وخازنا على بيت المال ، بمصر ، وقد كان عسكريا يختص بادارة القلاع وحفظ الحصون (١).

ولد صلاح الدين سنة(٥٣٢هـ/ ١١٣٧م) ، بتكريت ، ولم يطل المقام بوالده بعد ولادته بل انتقل الى الموصل ، فعمل والده مع عمه شيركوه في خدمة عماد الدين زنكي ، وشاركا عماد الدين معاركه مع الصليبيين ، وكذلك ابنه نور الدين زنكي ، .

وعندما بلغ صلاح الدين مبلغ الرجال كان قد درس العلوم الاسلامية ، من حديث وفقه ونحو وتاريخ ولغة وأدب ، وتدرب على الفروسية، فضمه عمه اسد الدين شيركوه اليه في حلب حيث كان شيركوه في خدمة نور الدين وحصل على اقطاع بها ، وخلف صلاح الدين بعد ذلك اخاه الاكبر توران شاه

(١) انظر : محمد سامي الدهان: الناصر صلاح الدين الايوبي عبدالعزيز سيد الاهل : ايام صلاح الدين . سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين .

في شحنكية دمشق (٥٥٠هـ/ ١١٥٦م) ، وأظهر صلاح الدين قدرة كبيرة ومهارة في وظيفته بعد أن أصبحت دمشق تابعة لنور الدين ، واستقال صلاح الدين لخلافه مع صاحب الديوان واتجه الى حلب حيث شمله نور الدين بعنايته لما بدا فيه من علامات التقدم والسيادة [١] ، وظل نور الدين يعتني به ويقربه ويخصه ، وعندما أرسل أسد الدين شيركوه في حملاته الثلاث الى مصر اصطحب ابن اخيه صلاح الدين ، ولم ينعم اسد الدين شيركوه بالحياة والوزارة في مصر طويلا ، فلم يمض عليه في الوزارة ثلاثة اشهر فقد توفي في ٢٢ جمادى الاخرة من عام ٥٦٤هـ/ ٢٣ أذار ١١٦٩م [٢] ، فولى الخليفة الفاطمي العاضد ابن اخيه صلاح الدين الوزارة .

أعدّ صلاح الدين نفسه للقيام بانقلاب شامل وعاجل داخل مصر في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولكن كان لا بد من أن يثبت أنصاره ليستعين بهم في تنفيذ خطته ، واستدعى بعضا من أقاربه من الشام لثقته بهم ولولائهم له عند حاجتهم .

وبدأ صلاح الدين بتطهير الجيش من القوات التي تشكل خطرا على سياسته الهادفة الى اقامة دولة قوية ، فعكف على التخلص من الامراء الموالين للحكم الفاطمي والارمن والسودان ، وبذلك آمّن ولاء واخلاص اهم جزء من الجيش .

ثم توجه نحو الشعب ليكسب حبهم واخلاصهم ، فأبطل المكوس والمظالم التي كانت الدولة الفاطمية تجبي منها سنويا مائتي الف

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص ٣٤١، ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص ١٦٨ .

دينـــار [1].

وتعرض الحكـم في مصـر لمؤامــرة دبرهـا رجـال القصـر بالتعاون مـــع جنـد السـودان والتنسـيق مع الصليبيين والتعـاون معهـم لمهاجمة مصـــــر ، وعندمـا يخــرج صلاح الديــن لمقاومـة الصليبيين ، يثـور الفاطميون واتباعهـم ويستولـون على الحكم ، وكـان كاتـب الرسالـة يهوديـا من الرهـط قد أرســـل بالرسالـة الى الصليبيين بنـاء على أوامـر وصلـت اليـه من مؤتمـن الخلافـــة الفاطميـة جوهـر بن عبداللـه ، لكـن المؤامـرة اكتشفـت واعـدم المتآمـرون [2] ، ولما علـم الصليبيـون مـا جـرى في مصـر من احـداث ، تقدمـوا لاحتـلال مدينـــة دميـاط ، بعـد أن اخـذوا موافقـة الدولـة البيزنطيـة وتلقـوا منهـا مساعــــدات كبيـرة [3] ، غيــر ان صـلاح الديـن نجـح في التصـدى للصليبيين بعـد ان ساعـــده نـــور الديـن في الشـام بارسـال الامـدادات اليــه ، ومهاجمـة بعض حصـــون الصليبيـن في الشـام [4]، وقـد أدى هـذا الى سيطرة صلاح الدين على الموقــف، فلم يتمكـن الفاطميـون من تحريـك ساكـن [5].

لم يبـق على صلاح الدين سـوى التوجـه في خطتـه نحو السياسـة الداخليـة

(1) ابو شامة: كتاب الروضتين، ج1 ، ص 174 .

(2) المصدر السابق ، ص 178 . ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص 258 .

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، ج1 ص 179 .

(4) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج 5 ، ص 7 .

(5) خاشع المعاضيدى: الوطن العربي والغزو الصليبي ، ص 149 .

في مصر ، وقد بدأها بعزل القضاة من الفاطميين وعيّن بدلا منهم قضاة شافعية ، فعين العالم الشافعي صدر الدين بن عبد الملك بن درباس قاضيا للقضاة الشافعية ووزيرا للديار المصرية [١] . ثم شكك بنسب الفاطميين وأنهم من نسل المجوس [٢] ، وبذلك لم يبق امامه سوى اسقاط الخلافة التي مهد لها بكل شيء .

وشملت خطة صلاح الدين في القضاء على اعدائه أن تكون محكمة بحيث لا تثير الفاطميين ، فقد وضع مع كل امير فاطمي جماعة من امراء الشام وأجنادهم ، وفي الصباح تمّ القاء القبض عليهم ، ولما علم الخليفة الفاطمي ، أوضح له صلاح الدين بأنهم أمراء عاصون ، وأنه انما قصد تعويضه بأحسن منهم [٣] .

سارت خطة صلاح الدين السياسية والداخلية والعسكرية كما يجب ، وهو يسيطر على القطاع العسكري سيطرة تامة ، فقطع الخطبة بمصر للعاضد الفاطمي وأقامها للخليفة العباسي المستضيء في محرم سنة ٥٦٧هـ ايلول ١١٧١ م وبناء على امر نور الدين زنكي ، وبذلك اعيدت الوحدة بين مصر والشام والعراق مذهبيا واقليميا ، واصبحت الخلافة العباسية هي الوحيدة ، بعد ان كانت الخطبة في مصر قد قطعت لحوالي مائتين وثمانين سنة [٤] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل، ج١١ ، ص ٣٦٦

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين، ج١، ص ٢٠٢ .

(٣) ابن الفرات : التاريخ ، ج١١ ، ص ١٣٠ .

(٤) خاشع المعاضيدى : الوطن العربي والغزو الصليبي . ص ١٥٠ .

ومما لا شك فيه أن سقوط الخلافة كان حدثا خطيرا في تاريخ العالم الاسلامي بوجه عام وفي مصر بوجه خاص ، فها هي دولة الفاطميين تنهار بعد قرنين من الزمن تقريبا ، لتعود للعالم الاسلامي وحدته المذهبية وتصبح الخلافة العباسية هي الخلافة الوحيدة التي يدين بها العالم الاسلامي بولائه الروحي (1).

ان اعلان الخلافة العباسية في مصر ، وموت الخليفة العاضد الفاطمي لم يؤد الى استتباب الامور ، فقد واجه صلاح الدين مؤامرات على الحكم، ففي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤ دبرت مؤامرة اشترك فيها بعض المنتمين الى الخلافة الفاطمية ، والناقمين على صلاح الدين الايوبي ، وكان من زعمائها " عمارة اليمني ، وداعي الدعاة ، وبقايا السودان وحاشية القصر في العهد الفاطمي (2).

وأدرك المتآمرون عجزهم عن مواجهة صلاح الدين ، فاستعانوا بقوة خارجية ، اتصلوا بالاسماعيلية في الشام وصقلية (3) ، ليقوم الصليبيون بغزو مصر في الوقت الذي يقومون باشغال الفتنة في الداخل .

اكتشفت الفتنة الداخلية ، وأحبطت قبل تنفيذها بفضل اشتراك زين الدين علي بن الواعظ ، احد رجال صلاح الدين مع مدبريها ، فقد

---

(1) عبد الله الغامدي: صلاح الدين والصليبيون ص ٥٣ .

(2) ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص ٣٩٨، ٣٩٩، ابن واصل: مفرج الكروب ، ج١، ص ٢٤٣ ٢٤٤ ، ابن خلدون : التاريخ ، ج٥ ، ص٢٨٧ .

(3) ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص ٣٩٨،٣٩٩، ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٢٤٣، ٢٤٤ .

أخبره بما عزم عليه أولئك ، فقبض عليهم [1] . وصلب زعمائهم في رمضان ٥٦٩ هـ / نيسان ١١٧٤ م ، ثم نفي الى الصعيد المتآمرين من الفاطميين ، وفرض الاقامة الجبرية والرقابة الشديدة على أهل القصر بعد أن أجرى عليهم أرزاقهم وما يليق بها لهم [2] .

واذا كان صليبيو الشام لم يفعلوا شيئا [3] ، لانهم عرفوا بانكشاف مؤامرة عميلهم " عمارة " وأصحابه ، وانه لاقبل لهم بملاقاة صلاح الدين بينما استجاب ملك صقلية ، وجهز اسطولا ضخما وبعثه الى مصر ، فوصل الاسكندرية في ذي الحجة من عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م م حيث دارت معركة كبيرة بين القوات الصقلية الغازية وقوات المسلمين في مصر ، انتهت بانتصار جيوش المسلمين ، وعاد الاسطول الغازي عن مصر يجر أذيال الخيبة بعد أن فقد عددا كبيرا من رجاله وعدده [4] .

وفي هذا العام خرج في اليمن عبدالنبي بن مهدي على الخلافة العباسية وقطع الخطبة فاستأذن صلاح الدين نور الدين زنكي في فتح اليمن فوافقه على ذلك ، فأ سر الخارج على الخلافة وسار الى عدن وتعز [5] .

---

(١) أبوشامه : كتاب الروضتين ، جـ١ ، ٥٦١ - ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥

(٢) ابن الاثير : الكامل : جـ ١١ ، ص ٤٠٠ . - ابن واصل : مفرج الكروب : جـ ١ ص ٢٤٧ .

(٣) ابن الاثير : الكامل : جـ ١١ ، ص ٤٠١

(٤) ابن الاثير : المصدر نفسه : ص ٤١٠

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب : جـ١ ، ص ٢٣٨، ٢٤٢ . ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ، ص١٦٠ . أبوشامه : كتاب الروضتين :جـ١،ص٥٥١ ، ابن العديم زبدة الحلب : ص ٣٣٩ قارن مع أبي المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦،ص ٦٩

ولم تقتصر الفتن في القاهرة وضواحيها وانما قامت فتنة في جنوب مصر في أسوان بقيادة أحد الفاطميين كنز الدولة ، حيث التف حوله الناقمون على سياسة صلاح الدين ، فأرسل صلاح الدين جيشا بقيادة أخيه الملك العادل فسار حتى التقى مع كنز الدولة ، فدارت بينهما معركة قتل فيها عدد كبير ، وعاد الملك العادل الى القاهرة بعد ان قضى على تلك الفتنة في صفر عام ٥٧٠ هـ / أيلول ١١٧٤ م (١)

لاشك ان السلطان نور الدين محمود زنكي حقق خطته السياسية الشاملة التي تتعلق بتوحيد الجبهة الاسلامية المواجهة بالاضافة (بلاد الشام ومصر) بالاضافة للأقطار المساندة (الجزيرة الفراتية الموصل ، اليمن) وبينما كان يعد الخطة الهجومية الواسعة لتطهير ماتبقى من البلاد المغتصبة فاجأه الموت بدمشق في شوال من عام ٥٦٩ هـ / أيار ١١٧٣ م (٢) فتولى الامر من بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل الذى لم يكن تجاوز الحادية عشرة من عمره ٠

ولما علم صلاح الدين بوفاة نور الدين جلس للعزاء ثلاثة أيام وأمر باقامة الخطبة بمصر لابنه الملك الصالح ، وضرب السكة باسمه ، كما بادر بتوجيه كتاب اليه كتبه القاضي الفاضل ، يعزيه بأبيه ، ويهنئه بالملك ، وأرسل اليه دنانير مصرية عليها اسمه ويعلن له الطاعة والولاء ويدعو له ويظهر مكان الخادم للسلطان (٣) ٠

---

(١) ابن شداد النوادر السلطانيه : ص ٤٨ ـ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٢،ص ١٧ أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة : جـ١ ، ص ٢٤ ٠

(٢) ابن الاثير : الكامل : جـ ١١ : ص ١٦٣ ـ أبوشامه : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٥ ـ ابن واصل : مفرج الكروب : جـ١ : ص ٢٧٣ ٠

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب : جـ٢ : ص ٤ ـ أبوشامه : كتاب الروضتين : جـ ١ ص ١٧٧ ٠

أما الموقف السياسي لدولة نور الدين زنكي بعد وفاته ، فقد اختلف بالنسبة للعالم الاسلامي شعوبا وحكاما ، وكان الاختلاف واضحا في الشام والجزيرة لانهما كانا يحكمان من قبل نور الدين مباشرة ، وموقف الحكام والامراء من وفاته لم يكن على مستوى المسؤولية بل كانوا بعيدين عنها فأغلبهم كانت تسيرهم المصالح الشخصية والاطماع الفردية ، وتطلع البعض الى الملك ، وقسم آخر سعى الى توسيع امارته التي يحكمها ، وثالث استغل حكمته وخبرته السياسية لينطلق من خلالها الى اكمال طريق نور الدين في تحقيق الوحدة وجهاد الصليبيين ، وكان سن الملك الصغير قد أتاح للتحرك والاستيلاء [1] ، فحلوا ماعقدوه .

صلاح الدين يعيد بناء وحدة الجبهه الاسلامية ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م .

خرج صلاح الدين من مصر قاصدا الشام على رأس سبعمائة فارس من خيرة فرسانه ، بعد ان استخلف على مصر أخاه الملك العادل وسار حتى وصل الى بصرى ، وهناك استقبله شمس الدين محمد بن المقدم وشمس الدين صديق بن محمد جاولي صاحب بصرى اللذان أرسلا له الرسل يستحثونه على سرعة الحركة [2] ، فاستقبلاه وقدما له المساعدات والتسهيلات ، ثم سار صلاح الدين حتى وصل دمشق فوصلها يوم الثلاثاء ربيع الآخر عام ٥٧٠ هـ / ٢٧ تشرين ثاني ١١٧٤ م فاستسلمت المدينة ماعدا القلعة التي سلمها صاحبها في اليوم التالي ، فأخرج مابها من أموال وأنفقها على حاجة دولته ، وأنزل فيها أخاه : ظهير الاسلام طغتكين بن

(١) محمود التكريتي : الايوبيون في شمال الجزيرة ، ص ٧٤

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : جـ ١ : ص ١٨ .

أيوب [1] . ثم نودى بدمشق باطابة النفوس وازالة المكوس ، وأنفق في الناس الاموال وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين ، وأظهر الدمشقيون الفرح به [2] .

كما ان صلاح الدين أظهر الطاعة للملك الصالح وضرب النقود باسمه وأقام الخطبة باسمه [3] كذلك .

ان معاملة صلاح الدين لأهالي دمشق بمثل هذا الود والاحترام بمثل الادراك العميق للمسؤولية الملقاة على عاتق كل منهما تجاه مايحيط به من الاخطار ، ويعبر عن حاجة الامة الى قيادة مخلصة تتحمل مسؤولية قيادة عناصر مشبوهة ضعيفة في مدينتهم دمشق . أما من ناحية صلاح الدين فكانت فكرة فتحه للمدن الاسلامية واضحة الهدف والغاية فهو يسعى لتحقيق وحدة تشمل الشام ومصر والجزيرة الفراتية والاستفادة من جميع امكانياتها العسكرية والاقتصادية والبشرية وتسخيرها من أجل تحرير بيت المقدس من أيدى الصليبيين ، مما دفعه لتحرير الاقاليم من الامراء المحليين في الشام والجزيرة ، واعتبرها وسيلة لاغاية لتحقيق هدف أسمى [4] .

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ج٢ : ص ٢٠ - أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) ابن الاثير : الكامل : ج١١ ، ص ١٦٩ - ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٧ ،ص١٦٦ ابن كثير : البداية والنهاية : ج١٢، ص ٢٨٨

(٤) محمود التكريتي : الايوبيون في شمال الشام والجزيرة : ص ٨٣ .

كان لدخول صلاح الدين دمشق أثر بالغ على القائمين بتدبير دولة الملك الصالح في حلب حلب وعلى رأسهم : سعد الدين كمشتكين ، فما ان سمعوا باستقرار صلاح الدين بدمشق ، حتى سارعوا الى الاستنجاد بسيف الدين غازى صاحب الموصل ، وصالحوه على مابيده من البلاد [١] .

وتجنبا للصدام مع الملك الصالح ، واظهارا للولاء ، أرسل صلاح الدين كتابا للملك الصالح أكد له فيه ولاءه ويؤكد له انما جاء لخدمته ولجمع كلمة المسلمين للوقوف في وجوه العوان المشترك الصليبي ، استشار الملك الصالح كبار رجال دولته في حلب، فأشاروا عليه بعدم الموافقعة، فرد صلاح الدين برسالة شديدة اللهجة، هدده فيها باخراجه من دمشق فاتهم صلاح الدين بالطمع في الملك. فغضب صلاح الدين من ذلك، وقال لرسول الملك الصالح" والله ما جئت الى هنا شرها ولا طمعا في الدنيا ، وفي مصر كفاية وما جئت الا رنقذ هذا الصبي من يد مثلك وأمثالهم وأنتم سبب زوال دولته" [٢].

خرج صلاح الدين من دمشق بعد ان استخلف عليها أخاه سيف الاسلام طغتكين ، فاستولى على حمص في جمادى الاولى عام ٥٧٠ هـ / كانون الاول ١١٧٤ م ، ولكن استعصت عليه قلعتها فلم يضيع الوقت في حصارها [٣] ولكنه أبقى حامية تقطع عنها المسيرة والتموين [٤] .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب : جـ٢ : ص ٢١

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

(٣) ابن الاثير : الكامل : جـ١١ : ص ١٦٩،١٧٠ ـ عاشور : الحركة الصليبية : جـ٢ ص ٧٤٢ .

(٤) ابن الاثير : المصدر والصفحة : ابن العديم : زبدة الحلب : جـ٣ : ص ٢١ .

توجه صلاح الدين الى حصار حلب ، فألب الملك الصالح أهلها ضده وتوسل اليهم بمقاومته ، فخرجوا لقتاله ، وأدرك سعد الدين كمستكين خطورة الموقف فراسل الاسماعيلية (الباطنية) ، وبذل لهم أموالا طائلة لاغتيال صلاح الدين ، وكادوا ينجحون لولا انكشاف أمرهم وقتلهم بعد ان جرحوا صلاح الدين [1] • ولما فشل اغتيال صلاح الدين قاموا بمراسلة أمير طرابلس الصليبي ريموند الصنجيلي ، الذى كان وصيا على مملكة بيت المقدس فأسرع الى نجدتهم ، وتوجه لحصار حمص ، مما اضطر صلاح الدين الى ترك حصار حلب والتوجه الى حمص في رجب ٥٧٠ هـ / شباط ١١٧٥ م ، فلما سمع الصليبيون بمقدمه رحلوا عن حمص ، فدخلها ، وملك قلعتها ، ثم سار منها الى بعلبك فملكها في السنه نفسها [2] •

صلاح الدين يلتقي مع أتباع سيف الدين غازى والحلبيين في قرون حماه ٥٧٠هـ/١١٧٥م

أدرك سيف الدين غازى والى الموصل بأن صلاح الدين اذا ضم حلب فانه سيتجه الى الموصل ، لذلك جهز جيشا بقيادة أخية عز الدين مسعود ، وطلب مساعدة أخيه عماد الدين صاحب سنجار فرفض [3] لكن انضم لجيش الموصل الجيش الحلبي فزحفوا جميعا الى حماه • وحفاظا على أرواح المسلمين ، وتوحيدا للصف ، عرض صلاح الدين على خصومه أن

---

(١) ابن الاثير : المصدر ص ١٧٠ • ابن العديم : زبدة الحلب : جـ ٣ : ص ٢١،٢٢

(٢) ابن الاثير : الكامل : جـ١١ : ص ٤١٩ ـ ابن واصل : مفرج الكروب :جـ٢ :ص٢٩ ـ ٣٠ ـ باركر : الحروب الصليبية : ص ٨٠ •

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب : جـ ٢ : ص ٣٢ •

يتنازل لهم عن الحصون التي معهم ويكتفي بدمشق على أن يكون نائبا عن الملك الصالح ، لكن خصومه رفضوا العرض ، والتقى الجيشان في قرون حماه في رمضان عام ٥٧٠ هـ / نيسان ١١٧٥ م ودارت معركه بين الطرفين انتصر فيها صلاح الدين [١] .

وترتب على هذه المعركة اعلان صلاح الدين عزل الملك الصالح اسماعيل بقطع الخطبة عنه ، وازالة اسمه عن النقود ، ليبدأ سياسة مغايرة لما كان عليه من قبل قلل مايمكن من ولاء للملك الصالح عند أولئك الامراء الطامعين مما اضطره الى الاعتراف بالامر الواقع والسعي للصلح مع الحاكمين في حلب ، ووافق صلاح الدين على رفع الحصار عن حلب على ان يكون له مابيده ولهم مابأيديهم من بلاد الشام وأن تجتمع الجيوش الاسلامية لقتال الصليبيين ، ووقعت الايمان على ذلك ، ومن جملة الشروط انه متى قصد الملك الصالح عدو ، حضر صلاح الدين بنفسه جيوشه ودافع عنه ، ألايغيروا الدعاء له على منابر البلاد التي تمت بيد السلطان وولايته أصحابه وأن تكون السكة باسمه [٢] .

عاد صلاح الدين بعد توقيع الصلح الى دمشق ، فلما وصل حماه وصلت اليه رسل الخليفة العباسي المستضيء ، ومعهم التشريفات الجليلة وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام [٣] .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية : ص ٥٠ ، ٥١ . ابن الاثير : الكامل : ج ١١ ص ٤٢١،٤٢٢ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان : ج٥،ص٢٠٣،٢٠٤ ـ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٢ ـ ٢٣ ابن واصل : مفرج الكروب : ج٢،ص٣٢،٣٣

(٢) ابن واصل : المصدر نفسه : ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ،ج١١،ص٤٢٢ ـ أبوشامه : كتاب الروضتين،ج١،ص٣٦٩ .

وهكذا أصبح صلاح الدين مطلق التصرف في البلاد تحت يده فأقطع خاله شهاب الدين الحارمي حماه ، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه حمص [1] .

صلاح الدين وتل السلطان ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م

وعندما علم السلطان سيف الدين غازي بالصلح الذي تم بين صلاح الدين وأمراء حلب أخذ يلومهم بل يوبخهم على تمليك صلاح الدين ما بيدهم من بلاد الشام وتبنيه حماية الملك الصالح عند تعرضه لأى خطر خارجي فأجبرهم على نقض ذلك الصلح ، وبعث رسولا من طرفه أخذ المواثيق عليهم بذلك ، ثم توجه الرسول ليأخذ ميثاق الصلح الاصلي الذي عقده صلاح الدين مع أمراء حلب ، فأخطأ الرسول الميثاق الجديد الذي ينقض الميثاق القديم ، وهنا أدرك صلاح الدين مايبيته سيف الدين غازي وأمراء حلب ضده ، فأرسل بطلب المدد من مصر [2] .

جهز سيف الدين غازي جيشا كبيرا شمل صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وأهالي حلب ، وانضم اليهم من انضم من تل السلطان .

التقى الجيشان في تل السلطان في شوال عام ٥٧١ هـ / نيسان ١١٧٦ م ، وانتهت هذه المعركة بانتصار صلاح الدين وهزيمة أعدائه [3] .

---

(١) ابن الاثير : المصدر نفسه والصفحة ـ أبوشامة : كتاب الروضتين : جـ١ ، ص ٦٤٠

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : جـ٢ ، ص ٣٦،٣٧ ـ أبوشامة : المصدر ص ٦٤٧

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية : ص ٥١ ، ٥٢ ـ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٧ ـ ٣٩ ـ ابن العديم : زبدة الحلب :جـ٣:ص ٢٦ ، ٢٧ .

وقد انتهت هذه المعركة على أمل لسيف الدين غازى في أي جزء من بلاد الشام ، فعاد هاربا الى الموصل ، كما ان هذه المعركة فتحت الثقة التامة والزعامة والقيادة الحقيقية للمسلمين لصلاح الدين ٠

وقد أدت هذه المعركة الى فصل حلب عن الموصل وسقوط عدد من المدن والمواقع كبزاقة ومنبج ، وقلعة أعزاز ، وحصن كيفا وماردين ، ونكثة وكتب صلحا مع اخوانه ، ودخل في الصلح جميع الاطراف بما فيهم أهل الموصل وأهل ديار بكر ، وجاء في الصلح " انه اذا غدر واحد منهم وخرج عن مقتضى اليمين كان الباقون يدا واحدة عليه " [1] ، والصلح بذلك موافق لجميع الاطراف ، وأثبت أمراء الموصل وبلاد الجزيرة حسن نواياهم العملية لدى صلاح الدين ٠

صلاح الدين يضم حلب ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م

عندما اشتد المرض بالملك الصالح اسماعيل وصى بالملك من بعده لابن عمه وصهره عماد الدين زنكي الثاني فرفض ذلك ، وذكر أصحابه نفوذ صلاح الدين في بلاد الشام ، وانه لم يبق منها سوى حلب ، اذ سلمت الى عماد الدين لم يستطع حفظها ، وان من الاحسن تسليمها الى عز الدين مسعود صاحب الموصل لكثرة عساكره وأمواله [2] .

وعندما توفي الملك الصالح في رجب عام ٥٧٧ هـ / كانون الاول ١١٨١ م سار عز الدين مسعود الى حلب ، فتسلمها ودخل قلعتها ، واستولى على خزائنها " [3] .

(١) ابن العديم : زبد الحلب : جـ٣،ص٢٠،٢١ـ ابن الاثير : الكامل: جـ١١،ص١٧٦ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٢،ص٤٦

(٢) ابن الاثير : الكامل ،جـ١،ص٤٧٣ـ أبوشامه : كتاب الروضتين،جـ٢،ص٢١،٢٢ ـ ابن واصل : مفرج الكروب : جـ٢،ص١٠٧،١٠٨ـ ابن العديم : زبدة الحلب،جـ٣،ص٤٨ النجوم الزاهرة : جـ٦٣ ، ص ٨٩،٩٠

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٢ ، ابن خلكان: وفيات الاعيان ج٧ ،ص ١٦٩٠

ولم يطل مقام عز الدين في حلب ، بل رحل عنها بعد تسلمها بعده شهور الى الرقة ، ومنها وصلته رسالة من أخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب منه ان يسلم اليه حلب ويأخذ منه سنجار عوضا عنها وبعد تردد تنازل له عن حلب مقابل أخذ سنجار ، وعاد الى الموصل بعد أن أدرك أنه ليس بامكانه حفظ الموصل وحلب [1] .

وفي صفر من عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م وصل صلاح الدين دمشق من مصر وبدأ بحصار حلب ، فاستولى في طريقه على آمد ، وتل خالد ، وعين تّاب وقد هدف صلاح الدين من ذلك ان يقطع كل اتصال بحلب وأن يعزز قواته لحصارها .

وأحكم صلاح الدين الحصار حول حلب ، ويبدو ان عماد الدين زنكي الثاني أدرك انه لاقبل له بمقاومة صلاح الدين ، لحنكة صلاح الدين وقوة جيشه ، بجانب وقوف عز الدين مسعود موقفا سلبيا فلم يحاول ان يقوم بدعمه على الرغم من انه قد أخذ الاموال التي كانت موجودة في خزينة الدولة رغب عماد الدين في مفاوضة صلاح الدين ومال ان سلم له مدينة حلب مقابل اعطائه سنجار فوافق صلاح الدين ، وزاد على طلبه الخابور والرقه ونصيبين . واستقر لصلاح الدين أمر حلب في صفر من عام ٥٧٩ هـ / حزيران ١١٨٣ م [2] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج١١ ، ص ٧٩ ٤ أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص ٤٣ .

وبضم حلب يمكننا القول ان خطة مشروع الجهاد ضد الصليبيين قد اكتمل ، فقد أصبحت دولة الاسلام الموحدة تشمل الشام ومصر والجزيرة العربية والموصل واليمن والحجاز ، وهي من حيث السعة والمنعة والسمعة أكبر دولة في الشرق الادنى .

وأما بالنسبة للصليبيين ، فقد كان ضم حلب وماحولها بمثابة ضربة وجهت لهم ، لان صلاح الدين أصبح أقوى حاكم في الشرق الاسلامي ، وقد استطاع ان يؤكد الرابط العسكرية بين محور مصر والشام ، وجعل الصليبيين داخل هذا المحور [1] ، فضلا عن ضمان صلاح الدين مؤازرة اخوانه في الجزيرة الفراتية في الغزو ضد الصليبيين [2] .

وطبقا للمعطيات المتقدمة يمكن القول ان نلخص أساليب سياسة صلاح الدين في بناء الوحدة بما يلي :

١ - الاعتماد على الناحية النفسية " الحرب النفسية " في طلب الاستسلام فقد كان يحاصر الحصون الممتنعة ، ثم يلقي بواسطة السهام رقاع يكتب عليها عبارات الترغيب والترهيب ، مما يحدث في صفوف المحجوزين اضطرابا نفسيا ، فيطلبون الاستسلام .

٢ - كان صلاح الدين يقدم التنازلات ويمنح الاموال الوفيرة لامراء بعض الحصون في سبيل فتح حصونهم دفعا للقتال ، كما حصل مع حصن حارم وميارفين .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية : جـ٢ : ص ٧٨٠

(٢) ابن الاثير : الكامل : جـ١١ ، ص٤٩٧ - أبوشامة : كتاب الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٤٣ - ابن واصل مفرج الكروب : جـ ٢ : ص ١٤٢ .

٣ ـ اصدار قرارات الامان لكل من يستسلم بدون قتال ، على ان يكون جيشه مع جيش صلاح الدين عند قتال العدو المشترك كحصن كيفا .

٤ ـ اللجوء الى الاساليب السياسية التحالف ، كما حدث مع عماد الدين زنكي الثاني من أجل اضعاف قوى الخصم المشترك .

٥ ـ اتباع سياسة الاستقرار بجوار المدن القوية الحصينة بعد محاصرتها دون القيام بالهجوم المباشر عليها مما يدفع أهل المدينة الى طلب الامان ، كما حدث مع الموصل في المرة الثالثة (١) .

لقد أمضى صلاح الدين في تحقيق سياسة البناء لاتمام الوحدة حوالي اثنى عشر سنه ٥٧٠ هـ ـ ٥٨٢ هـ / ١١٧٤ م ـ ١١٨٦ م ، فقد تمت الوحدة بين الشام والجزيرة الفراتية ومصر ، وثبتت مكانة صلاح الدين كقائد اسلامي عام لكل القوى التي كانت تعيش على تلك الارض الواسعة ، وبخاصة بعد موافقة الامراء كافة على الدخول في الوحدة تحت قيادته طوعا أوكرها ، مما أكسبه محبة جمهور المسلمين فأصبح بالنسبة للجماهير البطل المنتظر الذى سيتحقق على يديه النصر الاكيد على الغزاة الصليبيين (٢) .

التمهيد لحرب التحرير :

بعد ان تمكن صلاح الدين من تكوين الجبهة الاسلامية الموحدة كان لابد ان يسبق حرب التحرير الشاملة محاولات للتعرف على طبيعة أرض المعركة ، ومعرفة القدرة القتالية لدى الجنود المسلمين ، وان يوجد الاحتكاك مع الجنود الاعداء حتى يزيل اى نوع من الرهبة فكانت هناك الغارات الخاطفة ، والاصطدامات مع الاعداء ، ثم القيام بافشال مخططات العدو الصليبي في التوسع أو التحالف من أجل اضعافه ، وقد كانت

(١) خاشع المعاضيدى : الوطن العربي والغزو الصليبي : ص ١٦٠ ، ١٦١
(٢) خاشع المعاضيدى : الوطن العربي والغزو الصليبي : ص ١٦٥ .

هذه سياسته منذ ولي الوزارة حتى بدأ التحرير الشامل .

ففي عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ قام بالاغارة على غزة وعسقلان والرملة ثم توجه الى أيلة (العقبة) وحاصرها برا وبحرا حتى فتحها وشحنها بالرجال لحماية الحجاج [١] ، ولبقاء الطريق بين مصر والشام سالكة بأمان .

وفي سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ غزا عسقلان ثم اتجه الى الرملة وعن مقربة منها لقيه الصليبيون يتقدمهم أرناط (رينولد) ، وهزم صلاح الدين وحلف ألاتضرب له نوبة حتى يكسر الصليبيون ، كما قام بقطع أخبار (اقطاعات) جماعات من الاكراد ، أرجع اليهم سبب الهزيمة [٢] .

وفي سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ اجتمع الصليبيون يتقدمهم الملك بلدوين الرابع ، فأغاروا على دمشق ، ونهبوا وقتلوا وسبوا ، فلما علم صلاح الدين بمسيرتهم ، بعث ابن أخيه عز الدين فرخشاه فالتحمت قوات المسلمين ودارت بين الطرفين معركة انتهت بهزيمة الصليبيين [٣] .

وفي نفس العام جرت معركة بالقرب من تل القاضي في سهل مرج العيون ، حشد فيها الصليبيون سراياهم وقواتهم بقيادة بلدوين الرابع وباليان دى ابلين وقاد الجيش الاسلامي صلاح الدين نفسه ، وانتصر المسلمون فيها ، ووقع الجميع أسرى ماعدا بلدوين الذى نجا باعجوبة [٤] .

(١) ابن الاثير : الكامل ، جـ١١،ص ٣٦٥ . المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥٩

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : جـ٥ ، ص ٣٨٦

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ،ص٥٢، ٥٣ . ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ، ص ٥٩ ـ ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٢٩٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ١،ص ٤٥٢، ٤٥٣ .

(٤) ابن الاثير الكامل ،المصدر ،٤٥٥، ٤٥٦ .ابن واصل : مفرج الكروب،جـ٢،ص٧٥، ٧٧، أبوشامة :كتاب الروضتين،جـ٢،ص١٠ ـ سعيد عاشور الحركة الصليبية،جـ٢ص٧٦١

وفي عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م قام بغزو بيروت ، وذلك لفصل امارتي طرابلس وانطاكية الصليبيين عن مملكة بيت المقدس [1] ، وقام في السنة نفسها بالاغارة على طبريا وبيسان وعكا .

وفي عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ أغار على بيسان وصفوريا وعين جالوت وغيرها ، كما قام في السنة التالية بالاغارة على نابلس وماحولها [2].

وعلى الرغم من حرص صلاح الدين على تأمين الاتصال بين شطري دولته في مصر والشام ، الا ان تحقيق ذلك كان معضلا بسبب سيطرة الصليبيين على مدن وموانيء الساحل الشامي ، ومنطقة وادى عربة بما فيها من حصون أشهرها حصن الكرك والشوبك .

ويبدو ان صلاح الدين كان يدرك صعوبة فتح الطريق بين مصر والشام عن طريق المنطقة الساحلية أيضا ، بسبب تمكن الصليبيين من السيطرة عليها بسبب ضعف الاسطول الاسلامي [3] .

ويظهر ان صلاح الدين قد رأى أن من الاحسن فتح الطريق بين شطري دولته عبر وادى عربه لتأمين طرق قوافل التجارة ، وقوافل الحج وجيوشه البرية ، لكن العائق يكمن بسيطرة الصليبيين على حصني الكرك والشوبك وزاد في رغبته ذلك ان حصن الكرك صار لارناط (رينولد) بعد زواجه من

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٥٦ـ أبوشامة : كتاب الروضتين ،جـ٢،ص٢٩ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص ١١٥ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٤٨ ـ ١٥١ ابن الاثير : الكامل ، جـ١١ ، ص ٦هـ . ابن العديم : زبد الحلب ، جـ ٣ ، ص ٧٩ .

(٣) الغامدى: صلاح الدين والصليبيون ، ص ٦٦ .

أرملة صاحب الحصن . وأرناط هذا يحقد على الاسلام والمسلمين بسبب مالاقاه أثناء الاسر من الذل والهوان زمن نور الدين ، فما كان منه الان حاول مهاجمة الاماكن المقدسة في الحجاز .

شرع أرناط في عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م في بناء عدد من السفن ، ثم نقلها مفككة على ظهور الجمال الى ساحل البحر الاحمر ، حيث جرى تركيبها وشحنها بالرجال ومعدات الحرب ، ثم قسم أرناط القوات الى قسمين : قسم أبقاه على جزيرة القلعة (أيلة) ، وفرقة سارت في البحر باتجاه عيذاب على الساحل الغربي للبحر الاحمر ، وقطعت أثناء سيرها طرق القوافل التجارية ، وباغت أرناط ومن معه الناس في بلادهم على حين غرة ، ثم شرع في ارتكاب أبشع الجرائم من القتل والنهب مما أثار الرعب في قلوب الناس ، فهم لم يعهدوا سفنا صليبية تجارية كانت أوحربية تسير في ذلك البحر [1] . ثم توجه الصليبيون بعد ذلك الى ارض الحجاز وساروا في اتجاه المدينة المنورة .

وبمجرد سماع صلاح الدين بالخبر ، أصدر أمره الى والي مصر الملك العادل اعداد اسطول قوى بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، فقام هذا بقطع اتصال الجيش الصليبي بقاعدة تموينية في أيلة ، فحاصرها ، ودمر مابها من المراكب الصليبية ، وأسر من فيها ثم أسرع يتعقب السفن الصليبية عند عيذاب ، فنكل بها ، ثم عبر البحر الى شاطيء الحجاز ، فبلغ رابغ وساحل حوراء ، فأدرك الصليبيين بساحل الحوراء ، وأوقع بهم هناك ،

---

(١) ابن الاثير : الكامل : جـ١١ ، ص ٤٩٠ - ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٥ ، ص ٢٩٩ .

فاعتصوا ببعض الشعاب ، فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم ، فاستعان بخيول القبائل العربية القاطنة هناك [1] وطارد الصليبيين بين الجبال حتى حصرهم في شعب لاماء فيه ، فقتل معظمهم وأخذ الباقين أسرى [2] حيث قتلوا جميعا في مصر ماعدا اثنين ذبحا في منى .

أما أرناط ، فقد استطاع الافلات من الاسر ، وعاد الى حصن الكرك الذى كان وجوده يمثل خطرا على دولة صلاح الدين لقطعه طرق القوافل مما جعل صلاح الدين يخرج بنفسه لحمايتها في بعض الاحيان .

وفي عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، قرر صلاح الدين مهاجمة حصن الكرك فأرسل الى أخيه الملك العادل بمصر يطلب الاجتماع به على الكرك لمساعدته في احكام حصاره ، وأفاد الملك العادل ، ففرض صلاح الدين على الحصن حصارا شديدا ، وضرب أسواره بالمنجنيقات فلما سمع الصليبيون بذلك أصابهم هلع شديد ، فسار راجلهم وفارسهم نحو الكرك يتقدمهم ملك بيت المقدس عموري الرابع للدفاع عن الكرك ، مما دفع صلاح الدين الى التفكير في العودة الى دمشق بعد أن كبد الصليبيين خسائر كبيرة

وفي العام التالي ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ، عهد صلاح الدين الى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر من مصر لمحاصرة حصن الكرك على رأس جيش مصر للمشاركة مع أخيه الملك العادل بعساكره من حلب ونور الدين بن قرا من كيفا وآمد [3] ، وتوجه صلاح الدين بعد أن تكاملت

(١) المصدر نفسه : ص ٤٩١ ـ ابوشامه : كتاب الروضتين ، جـ٢ ، ص ٣٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ ـ أبوشامه : المصدر نفسه : ص ٣٥ .

الاستعدادات ، وفرض حصارا شديدا ، ونصب عليه تسعة منحنيقات صفا وتمكنت من هدم السور المقابل لها ، حتى لم يعد يمنعه من الوصول الى الحصن الا الخندق الذى أخذ يعمل على طمه لتحقيق غرضه ، وجاء الصليبيون لنجدتهم ، فانسحب صلاح الدين ، وفي طريق عودته أغار على نابلس وجنين وسبسطية [1] .

لقد أعطت هجمات صلاح الدين المتتالية على حصن الكرك ثمرتها السريعة ، فقد أدرك أرناط " رينولد " أنه يستطيع ان يتلقى الضربات الاسلامية المتتالية ، فبادر الى طلب هدنه من صلاح الدين ومعه بقيه ملك القدس فوافق صلاح الدين ، وأخذت القوافل الاسلامية تتردد بين مصر والشام في أمان تام [2] .

لكن أرناط الذى عرف بغدره وخيانته لم يلبث ان نقض الهدنة فقد انقض فجأة على قافلة اسلامية متجهة من مصر الى الشام عام ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م فغدر بها ، وأسر من بها من المسلمين واستولى على الاموال والدواب والسلاح وأودعهم بسجن الكرك [3] ، وقال مستهزئا " قولوا لمحمدكم ان يخلصكم " [4] .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية : ص ٦٦، ٦٧ - ابن واصل : المصدر السابق ص ١٥٧ ، ١٥٨ - ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٣، ص ٧٨، ٧٩ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١، ص ٥٢٧، ٥٢٨، ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٢، ص١٨٥ - ابن خلدون : تاريخ ، جـ٥، ص ٣٠٥ .

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق والصفحة ، أبوشامة : كتاب الروضتين ، جـ٢، ص٧٥ ابن واصل : المصدر السابق والصفحة .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية : ص ٣٣ .

وحاول صلاح الدين أن يعالج الموضوع بحكمته المعهودة فأرسل رسالة الى أرناط يذكره بالصلح والعهد ، علمه يطلق سراح تلك القافلة التي غدر بها الا ان أرناط لم يصغ وتمادى في غيه ، وأصر على خرق الهدنة ، وشن الغارات على المسلمين فأعطى صلاح الدين عهدا ان ظفر به ان يستبيح دمه (١) .

الاستعداد لمعركة حطين

لقد كانت خطة صلاح الدين الاستراتيجية تقوم على تحرير الارض المقدسة من الغزاة الصليبيين ، وهي استمرار لخطة نور الدين ووالده عماد الدين زنكي ، وقد عمل كل من عماد الدين وابنه نور الدين مابوسعهما في الوحدة ومقارعة الصليبيين ، ولكن نجاح الوحدة في الشام والجزيرة ومصر لم تتحقق الا في عهد صلاح الدين .

لقد غدت الدولة الاسلامية في عهد صلاح الدين تمتد من النيل الى الفرات ، وجعلت القوة العسكرية الاسلامية مهيأة لدخول معركة حاسمة مع الصليبيين وقد اجتمعت لديه عدة عوامل سياسية واقتصادية وادارية جعلته يحقق النصر وهي تقسم الى قسمين :-

أ - فيما يتعلق بالصليبيين :

١ - ايجاد الانقسام بين صفوف الصليبيين حتى لايكونوا جبهة واحدة ويفتحوا عليه أكثر من جبهة وهذا يتمثل فيما يلي :

أولا : أرسل الى أهل حلب يأمرهم بمصالحة أمير انطاكية يوهمند (٥٨٣ / ١١٨٧ م) (٢) .

---

(١) ابن الاثير : المصدر ، ص٣٨د - أبوشامة المصدر والصفحة ٧د .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية :ص٧٥ - أبوشامة : كتاب الروضتين ج٢،ص١٨٠ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢،ص ٨٠١ .

ثانيا : موقفه من الانقسامات في مملكة بيت المقدس :

فقد كانت تمر هذه المملكة بظروف عصيبة ، فقد مات ملكها بلدوين الخامس ، وتولت من بعده زوجته " جاي لوجان " وخلعت التاج عن رأسها ووضعته على رأسه قائلة " زوجي أقدر وهو أحق بالملك وأجدر " (1) وهذا أغضب أمير طرابلس " القومص ريموند الصنجيلي ، فدفع بنفسه الى أحضان صلاح الدين طالبا مساعدته ضد ملك القدس ، فأجاب صلاح الدين طلبه ، وأوشك الصدام أن يحتدم بينهما ، وتطاول ريموند على ملك القدس جاى وعسكر في طبريا ، وتحرك ملك القدس وحشد جيش عظيم لمهاجمته لولا تدخل بعض الامراء لتهدئة الموقف ، ثم قام جاي باسترضاء ومصالحة ريموند (2) .

ثالثا : ايجاد الخلاف بين أمير الكرك أرناط ، وغاى لوزجان ملك القدس فعندما اعتدى أرناط على قافلة المسلمين ، أرسل صلاح الدين رسالة اليه يطالبه بالالتزام بالصلح واطلاق سراح المسلمين واعادة أموالهم ، فرفض أمير الكرك ، فكتب الى ملك القدس ، وطالبه بالالتزام بالصلح والتدخل في اعادة الاسرى الاموال ، فرفض ، وهذا أوجد الخلاف بينهما وعدم الثقة (3)

رابعا : محاولة استعادة الصداقة مع الدولة البيزنطية :

فقد كتب الامبراطور البيزنطي اندرونيكوس في ربيع الاول ٥٨١ هـ / حزيران ١١٨٥ م الى صلاح الدين يطلب فيها من صلاح الدين اعادة الصداقة

(1) العماد الاصفهاني : الفتح القسي : ص ٦٧ ، ٦٨ .

(2) أبوشامة : كتاب الروضتين :جـ٢،ص٧٦ ،العماد الاصفهاني : الفتح القسي ص٦٨

(3) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٢٧ .

القديمة ، ويقترح على الامبراطور على صلاح الدين ان يتم فتح فلسطين على ان تقسم بينهما ويأخذ البيزنطيون بيت المقدس والمدن الساحلية ماعدا عسقلان ، ويبدوا ان صلاح الدين وضع اقتراحات أخرى ، لكن الامبراطور عزل ، وتولى بعده اسحق الثاني الذى استقبل رسول صلاح الدين ولكن لم يتوصلا لشيء حاسم ٠

ولكن هذه المراسلة قد أساءت الى الدولة البيزنطية ، مما دفع امبراطور ألمانيا فردريك بربروسا الى حث البابا لحملة صليبية ضد البيزنطيين [1] ، ولعل اشاعة التحالف هو الذى دفع الصليبيين في بلاد الشام الى اعتقال الكسيوس انجليوس الى الامبراطور اسحق الذى مر بعكا في طريقه الى القسطنطينية ، علما ان صلاح الدين لم يهتم بصلاته مع الامبراطور البيزنطي الاهتمام الكافي [2] ٠

وقد أدت هذه السياسة نحو الصليبيين الى انقسامهم والى عزل امارة الكرك وبالتالي الى ضعف الصليبيين ٠

ب ـ فيما يتعلق بالمسلمين :

١ ـ اعلان حالة الجهاد ضد الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، فأرسل الى سائر الاطراف يطلب العساكر ، ويستنفر الناس للجهاد ، فكتب الى مصر والموصل وديار الجزيرة وبلاد المشرق ، وسائر بلاد الشام ، وخرج هو بنفسه الى رأس الماء بالقرب من عكا ، بينما أبقى ابنه الافضل في دمشق لتجتمع عنده الامدادات والمؤن والنجدات ٠

(١) Brand : The B/3 and anlines and saladin . Vol. 37 P. 168 , 169 (1962) .

(٢) Ibid P. 180

٢ ـ تأمين جيش مصر ، سار بنفسه الى بصرى وأقام هناك يرتقب وصول الحجاج خوفا عليهم من غدر أمير الكرك وهاجمها وقطع ماحولها من الاشجار ، وأفسد زرعها وكرومها ، ثم سار الى الشوبك وفعل مثل ذلك [١] ، وقد هدف صلاح الدين من هذه الحملة على الكرك والشوبك اشغال الصليبيين خوفا من اعتراضهم الجيش المصرى الذى كان في طريقه الى الشام فاجتاز الجيش العربي الاسلامي المنطقة دون اعتداء [٢].

٣ ـ توفر القادة والامراء المخلصين في كل منطقة من مناطق نفوذ صلاح الدين والذين يعتمد عليهم في ادارة شؤون الدولة وقيادة الجيش [٣].

٤ ـ توفر الموارد اللازمة للمعركة من حيث الطاقات البشرية والاقتصادية والذخائر والاسلحة التي مكنته من الوقوف بوجه أعدائه ، ولكنها لاتقارن بموارد وطاقات الصليبيين بطاقات ضخمة تمثلت بالعدد الوفير من الجنود والفرسان والمعدات [٤].

٥ ـ الايمان بضرورة تحرير الارض المقدسة من أيدى الغزاة ، وهذا جعل الجنود والقادة يبذلون أقصى طاقاتهم من أجل التحرير .

---

(١) ابن الاثير : الكامل : جـ١١،ص ٥٢٩ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ،جـ٢،ص١٨٦ .

(٢) ابن الاثير : المصدر نفسه :ص٥٣٠ ـ ابن واصل المصدر والصفحة .

(٣) ابن الاثير : المصدر والصفحة .

(٤) انظر : عبدالكريم غرايبة : العرب والترك ، ص ٢٤٥ـ خاشع المعاضيدى وآخرون : الوطن العربى والغزو الصليبى ، ص ١٦٦ .

الناحيـة الادارية :

١ ـ قام صلاح الدين بتوزيع الاقاليم على أهل بيته ليضمن أحكام سيطرته وعدم خروجهم عليه ، واستمرار الدعم المادي والاقتصادي للمعركة .

٢ ـ اختيار الموقع للمعركة ، والتوقيت لها ، وتنظيم الجيش المقابل ويظهر هذا واضحا في استدراج الفرنج الى أرض المعركة ، فقد جرهم اليها صلاح الدين ببدء الهجوم على طبريا والاستيلاء على قلعتها في ٢١ ربيع الاول عام ٥٨٣ هـ / ٢ تموز ١١٨٧ م [(١)]

٣ ـ القيام بعمليات استطلاعية لكشف مخططات الصليبيين ، واضعاف معسكراتهم ، كما هو الحال عندما أرسل القوة الاستطلاعية الى صفوريا بقيادة مظفر الدين كوكبوري .

٤ ـ تقسيم الجيش الاسلامي الى كتائب ، وترتيب الجيش طبقا لنظام المعركة المعتاد ميمنة وميسرة وجناحين ، فجعل ابن أخيه تقي الدين عمر في الميمنة ، ومظفر الدين كوكبوري في الميسرة ، وكان صلاح الدين في القلب ، وبقية الجيش فرقة على الجناحين استعداد للحرب [(٢)] وقد بلغ الجيش الاسلامي اثني عشر ألف مقاتل [(٣)].

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٧٥ ، ٧٦

(٢) أبوشامه : كتاب الروضتين ، جـ ٢، ص ٧٢ ـ ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ٧ ، ص ١٧٤ .

(٣) أبوشامه : المصدر السابق : ص ٨٦ ـ ابن واصل : مفرج الكروب : جـ ٢ ، ص١٨٧ .

التمهيد لحطين :

أرسل صلاح الدين قوة استطلاعية بقيادة مظفر الدين كوكيوري (صاحب حران) قايماز النجمي (أمير عسكر دمشق) ، وبدر الدين ولدرم بن ياروق (أمير عسكر حرب) ليقوموا بالاغارة على ممتلكات العدو ، فسارت هده السرية المدججة بالسلاح والعتاد باتجاه صفورية ، فساروا في الجزء الاخير من الليل على أن يكون هجومهم عليها في الصباح وصحوا صفورية [1] وفوجيء الصليبيون بالسيوف والرماح وأسرعوا الى لم شعثهم ، والتقى الجمعان وسقط معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى ، وكان من جملة القتلى مقدم الاسبتارية ، وعدد كبير من أبرز فرسانهم ، ونجا مقدم الدوية بصعوبة بالغه [2] ، وحاول الصليبيون أن ينجدوا اخوانهم فوقعوا في الاسر ، وعادوا الجيش الاسلامي سالما غانما [3] ، وكان انتصارهم باكورة ومقدمة لما بعدها من ميامين الحركات [4] .

اجتمع الجيش الاسلامي في حوران في عشترا ، وكان في اثني عشر ألف مقاتل فرتب جيشه ميمنة وميسرة وقلب وجناحين استعدادا للقتال [5]

---

(١) أبوشامه : المصدر السابق : ص٧٥، ٧٦ ـ أبن واصل : المصدر السابق والصفحة .

(٢) العماد الاصفهاني : الفتح القسي :ص٦١، ٦٢ ـ أبوشامه : كتاب الروضتين ، جـ٢ ص ٧٥، ٧٦ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٢،ص ١٨٧

(٣) ابن واصل : المصدر السابق والصفحة .

(٤) أبوشامه : كتاب الروضتين : جـ٢،ص ٧٦

(٥) أبوشامه : المصدر نفسه ، ص٧٣، ٧٦ ـ أبن واصل : المصدر السابق ، ص ١٨٧ ابن خلكان : وفيات الاعيان : جـ٧ ، ص ١٧٤ .

وسمع الصليبيون باجتماع المسلمين ، فحشدوا جيشهم ثم أصدر الملك جاى الامر بالتعبئة ، ثم وزعت الاموال التي بعثها ملك انجلترا هنري الى الملك جاى ، وقد بلغ عددهم خمسين ألفا أويزيدون[1] وتمركزوا في صفوريا .

استشار صلاح الدين قادته ، ثم قرر استدراج الصليبيين الى المكان المناسب الذى يستطيع آنذاك الهزيمة بهم وكان يريد ان يجبرهم للمسير اليه حتى يصلوا اليه متعبين ويكون هو مدخر جهده وجهد رجاله[2] .

آخذ صلاح الدين يرسل كل يوم جماعة من رجاله لمباغتة الصليبيين والنكاية بهم محاولا بذلك استدراجهم اليه ، ولكن الصليبيين لم يتركوا مركزهم في صفوريا ، فرأى الهجوم على طبريا وذلك لاثارة الصليبيين لان زوجة ريموند وأولاده فيها ، هذا بجانب ان احتلال طبريا يوصد الطريق المؤدى الى طبريا وتنتهي الى الماء[3] ، بينما منطقة صفوريا منطقة وعرة لاتتوفر فيها المياه[4] .

وفي يوم الخميس ٢٣ ربيع الآخر عام ٥٨٣ هـ / ٢ تموز ١١٨٧ م تقدم الجيش الاسلامي نحو طبريا ، فلجأ من بها من الصليبيين الى القلعة وامتنعوا بها ، وما ان وصلت الاخبار الى الفرنج حتى أصدر الملك جاى الى مجلس الحرب الى جلسة وافقوا على الحرب ماعدا ريموند الذى حذرهم[5]

(١) العماد الاصفهاني : المصدر السابق ص ٧٤ ، ابو شامة : المصدر السابق ص ٧٦ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٨٠٤ .

(٣) الباز العريني : الشرق الادنى في العصور الوسطى ج ٨٧ ، ابن الاثير : الكامل ج١١ ، ص ٥٣٣ .

(٤) عبدالله الغامدى : صلاح الدين والصليبيون ، ص ١٨٢ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج١١ ، ص ٥٣٣ .

فاتهموه بالخيانة والتحيز للمسلمين ، وكان من أشد المتحمسين أمير الكرك أرناط ، وبدأ الجيش الصليبي في التقدم نحو طبريا تاركا تلال صفوريا .

كان صلاح الدين قد أعد خطته ، وسار الفرنج حسب رغبته ، فكانت كمائن المسلمين لهم بالمرصاد ، ووعرة الطريق ، وانعدام الماء ، بالاضافة الى حرارة الجو في تموز ، فكان الجيش الصليبي أثناء سيره قد حل به انفصال كبير ، فمؤخرته لاتجارى السير بقية الجيش مع الوسط والمقدمة الامر الذى جعل الملك جاى يقيم معسكرا قبل الوصول الى طبريا ، بينما حاول ريموند حث الصليبيين في السير للوصول الى المياه ، مما ادى الى تذمر ريموند وشعر بالهزيمة مسبقا [1] .

وفي هذا الوقت كان الجيش الاسلامي مستريحا ومستعدا وكله ثقة بالنصر فقام صلاح الدين فرتب رجاله في تلك الليلة وفرق عليهم الاسلحة وترك فرقة من جيشه في طبريا المشرفة على سهل حطين ، وهي منطقة على هيئة هضبة ترتفع عن سطح البحر ثلاثمائة متر ، ولها قمتان .

التقى الجيشان على سهل جبل طبريا الغربي ، وحل الليل دون ان يشتبك الطرفان ، وفي صباح الجمعة ٢٤ ربيع الاخر عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م تحرك الجيشان وتصادما بأرض لوبيا ، واستمر القتال حتى فصل بينهما الظلام ، وبات كل فريق في سلاحه [2] .

واستغل صلاح الدين الليل ليكمل استعداداته للمعركة الفاصلة ، بينما

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية : جـ٢ ، ص ٨٠٦

(٢) أبوشامه : كتاب الروضتين : جـ٢ ، ص ٨١ ـ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٨٩ .

فرتب جيشه ورسم له الخطط ، وأحاط بالفرنج احاطة الدائرة يقطرها [1] .

وفي صباح السبت الباكر تقدم الجيش الاسلامي الذي أعلن استعداداته للمعركة الفاصلة ، بينما وضع الجيش الصليبي خطة الوصول الى الماء لعله يرد الماء ، لكن صلاح الدين حال دون خطتهم ، واستمات المسلمون وشددوا هجماتهم على الاعداء مدركين ان من ورائهم الاردن والايمان بالله [2] ....

أدرك الصليبيون ان نهايتهم قد حانت ، وأنه لاينجيهم سوى الفرار أو الاستسلام ولم يستطع النجاة سوى ريموند أمير طرابلس .

ويبدو ان صلاح الدين تعمد في تلك المعركة الحاسمة الى ادخال الوهن واليأس في نفوس الصليبيين ، فبعد ان حاصرهم في أعلى جبل حطين وبعد ان أشعل النيران في الاعشاب الجافة ليزيد من عطشهم ، واشتد عليهم القتال ركز همه على الاستيلاء على صليبهم الاعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ، والذي يذكرون " انه فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم [3] فالاستيلاء على هذا الصليب من أعظم الاسلحة لتحطيمهم معنويا ونفسيا ، وبقي صلاح الدين يضيق عليهم الحصار حتى لم يبق مع الملك سوى فئه قليلة لايتجاوز عددها مائة وخمسين من الفرسان [4] بينما بلغ عدد الاسرى ثلاثين رجلا وامرأة [5] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل : جـ١١ ، ص ٥٣٥

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية : ص ٧٦

(٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ١١،ص٥٣٥ ، ٥٣٦ ـ أبوشامة : كتاب الروضتين،جـ٢،ص٧٨

(٣) ابن الاثير : الكامل :جـ١١،ص٥٣٦ـ أبوشامه :كتاب الروضتين،جـ٢،ص ٧٨ ـ ابن واصل : مفرج الكروب : جـ٢،ص ١٩١

(٤) ابن شداد :النوادر السلطانية،ص٧٧ـ أبوشامة : المصدر نفسه والصفحة ـ ابن واصل : المصدر السابق ، ص ١٩٢

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٩٥

وانتهت المعركة بهزيمة منكرة للصليبية ، فلم ينجح منهم الا عدد قليل من المحاربين ، ووقع على رأس الاسر الملك جاى وأرناط صاحب الكرك وأوك صاحب جبيل ، وهنفرى بن الهنفرى صاحب تبنين وبن صاحبة طبريا وجيرار مقدام الداوية [1].

ثم أمر صلاح الدين فضرب خيمة له ، فصلى لله تعالى شكرا على نصره ، ثم أحضر ملوك الصليبيين فاستقبلهم استقبالا جنا ، وأجلس الملك وذكره الى جانبه ، وأجلس أرناط الى جانب الملك ، ثم خاطب صلاح الدين الملك وذكره بخيانته وجرائمه ، وقال له كم تخلف ونكث ، وخاطب أرناط " هاأنذا استنصر لمحمد ثم عرض عليه الاسلام فأبى ، فاستل صلاح الدين سلاحه وضربه على كتفه فحل كتفه وتمتم عليه من حضر [2] ، وقال " كنت نذرت دفعتين ان أقتله ان ظفرت به احداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة ، والثانية ، لما أخذ الفعل غدرا " [3]

ثم أحضر صلاح الدين الداوية والاسبتارية (وهدف هاتين الطائفتين طعن الاسلام وانتهاك حرماته بشتى الوسائل وعرض عليهم الاسلام ، فمن أسلم استبقاه ومن أبى أمر بقتله [4] جزاء ماارتكبوه من أفعال في حق المسلمين

---

(١) ابن واصل المصدر السابق .

(٢) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ . ابن واصل، ج٢، ص١٩٥ .

(٣) ابن الوتد: الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٧ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب : ج٢ ، ص ١٩٦ .

أما بقية الاسرى فقد أمر صلاح الدين ان يساقوا الى دمشق ، حيث تم بيعهم بأسعار زهيدة [1] .

توجه صلاح الدين من حطين الى طبريا فاستسلمت زوجة ريموند الثالث وخرجت بمالها ورجالها ونسائها الى زوجها في طرابلس .

سار صلاح الدين بعد ذلك ثلاثة أيام الى عكا وخيم بالقرب منها وراء التل ، ونصب عليها المنجنيقات ، وفي اليوم التالي تضرع أهلها اليه فخيرهم الاقامة والرحيل ، ودخل صلاح الدين عكا واستولى على مافيها من الاموال والذخائر ، وأطلق مافيها من الاسرى المسلمين الذين بلغ عددهم أربعة آلاف نفس [2]

ومن عكا أرسل عساكره فأعادوا الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا وصفوريا والشقيف وتبنين ونابلس وحسام سبسطية ، ومجدى بابا ، ويافا ، وصيدا وصرفند (من قرى صور) ، وبيروت ، وجبيل ، وصور ، ثم اتجه نحو الجنوب فسار الى عسقلان واجتمع بأخيه العادل هناك وتسلم في طريقه الرملة ويبنا وغيرها [3] .

لقد اتجه صلاح الدين الى المدن الساحلية أولا وذلك ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بأوروبا ، وبذلك يصبحون في الداخل منقطعون تماما عن كل مساعدة ، وهو في الوقت نفسه بعيد

(١) ابن واصل : مفرج الكروب : جـ٢ ، ص ١٩٦

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ، ص ١٩٥ ـ أبوشامه : كتاب الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ .

(٣) العماد : الفتح القسي : ص ٨٩ ـ أبو شامة : المصدر السابق : ص ١٨٦ ـ ابن واصل : المصدر السابق : ص ٢٠١ . أبوالمحاسن المصدر السابق جـ٦، ص٣٥ .

الاتصال البحرى بين المدن الشامية والمصرية ، فضلا عن مكانة هذه المدن من الناحية التجارية ٠

لم يبق على صلاح الدين بعد تحرير المدن الساحلية ، ومعظم المدن الداخلية سوى مملكة بيت المقدس التي أصبحت منعزلة تماما عن الغرب الاوروبي ، وأصبح الطريق اليها ممهدا سهلا امام صلاح الدين[1] ٠

تحرير القدس : ليلة الاسراء والمعراج الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م:-

تتجلى عبقرية صلاح الدين العسكرية في خطته العسكرية التي اتبعها في جهاده ضد الصليبيين لتحرير بيت المقدس ، فقد قامت خطته على تكوين الجبهة الاسلامية الموحدة من بلاد الشام والعراق ومصر ، ثم تحديد الزمان والمكان لمعركة حطين وانزال الهزيمة الساحقة بالصليبيين ، وليضمن الاستقرار التام للقدس بمنع وصول المساعدات البحرية والبرية للقدس ولقطع كل أمل لهم بالسيطرة على المدن الساحلية في بلاد الشام ، طلب من الاسطول الاسلامي بقيادة الحاجب لؤلؤ المحافظة على هذه الموانئ ، ثم قام بحملة اعلامية الى كافة العالم الاسلامي لاستنفارهم للجهاد من اجل تخليص بيت المقدس ٠ كما استدعى القوات الاسلامية التابعة له فتجمعت لديه ، وأحضر أدوات الحصار الكافية لاقتحام الاسوار ، من منجنيقات وعرادات ونفاطات وقطاعات ٠

وفي ١٥ رجب عام ٥٨٣هـ/ ٢٠ ايلول ١١٨٧ م ، تجمع الجيش الاسلامي مقابل الاسوار الغربية : بوابة داوود الى بوابة القديس ستيفن، فوجد أن اختيار الهجوم من تلك الجبهة شاق للغاية لوجود الابراج

---

(١) عبدالله الغامدي: صلاح الدين والصليبيون، ص ١٩٧٠

الكبيرة ، ومواجهة الشمس حتى بعد الظهر [1] ، وبعد خمسة أيام رأى صلاح الدين أن يقفل الى الجهة الشمالية نحو باب العمود . وكانت الخطة الجديدة تقوم على أساس قيام المنجنيقات بضرب الاسوار ، وتتقدم في الوقت نفسه فرقة من الجيش للمضايقة بالزحف والقتال تحميهم سهام الرماة والحجارة والنيران الاغريقية لكي تتمكن الجيوش الاسلامية من الاقتحام والسيطرة على المدينة [2].

بدأ صلاح الدين هجومه وفي المقابل كان خيالة الصليبيين يخرجون الى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون ، فيحمل عليهم الفرسان المسلمون فيرغمونهم على دخول المدينة ، وواصل المسلمون زحفهم حتى وصلوا الخندق فجاوزوه والتصقوا بالاسوار ، وشرعوا في نقبها ، بينما كان الرماة يطلقون سهامهم ، والمنجنيقات توالي الرمي ليكشف العدو من الاسوار [3].

ولمّا رأى الصليبيون شدّة قتال المسلمين ، وتحكم المنجنيقات في الاسوار وتمكن النقابيون من النقب وأنهم مشرفون على الهلاك ، تزاحموا في الكنائس للصلاة والاعتراف بذنوبهم ، وقطعت النساء شعور بناتهن على أمل استثارة الرجال لحمايتهم من سبي المسلمين [4].

وأخيرا اتفق الصليبيون على ارسال الرسل الى صلاح الدين بطلب

---

(1) Lane - Poole : Saladin and Tall of Kingdon of Jerusalem/ P. 226

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٨١، ابن واصل: مفرج الكروب،ج٢، ص ٢١٢.

(٣) ابن شداد : المصدر نفسه والصفحة، ابن واصل: المصدر نفسه ص٢١٣، ابن الاثير : الكامل، ج١١، ص ٥٤٧ ، ٥٤٨ .

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب،ج٢، ص٢١٣.

الأمان مقابل تسليم المدينة فامتنع صلاح الدين عن اجابتهم الى ذلك وقال :
" لا أفعل بكم الآ كما فعلتم بأهله حين لكتموه سنة احدى وتسعين
وأربعمائة من القتل والسبي ، وجزاء السيئة بمثلها " (١) ، وهكذا عاد
الصليبيون خائبين ، وحاولوا القيام بهجمات مفاجئة ضد المسلمين كانوا
يعودون فاشلين ٠ ولكن البطريك هرقل اعترض على المحاولات وحرّضهم
على طلب الامان من صلاح الدين (٢) ، وبعد الحاح شديد من باليان
دي ابلين والتهديد بحرق مسجد الصخرة المشرفة وقتل خمسة آلاف اسير
مسلم ، وحرق المدينة والانتحار (٣) وافق صلاح الدين على استسلام المدينة
واعتبار سكان المدينة أسرى حرب (٤) وعلى مغادرة الصليبيين المدينة
مقابل فداء يدفعونه فجعل على الرجل عشرة دنانير وعلى المرأة خمسة
دنانير (٥) ، اما الفقراء والمعدمون فقد وافق أن يدفع باليان مقابل
اطلاق سراحهم مبلغا اجماليا قدره ثلاثون ألف دينار ، وحدد صلاح
الدين لباليان مدة أربعين يوما ، فمن أدى فديته خلالها اطلق سراحه ،
ومن بقي بعدها سار مملوكا ، وسلمت المدينة يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج١١ ، ص ٥٨١ ٠

(٢) Lane - poole : Saladin P. 228 .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج١١ ، ص٥٤٨د ، ٥٤٩د ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢١٤ ٠
ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص ٩٥ ٠

(٤) Lane - Poole : Saladin P . 229 .

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٨١ ، ٨٢ ٠ ابن الاثير : الكامل ، ج١١ ، ص٥٤٩ ، ابو
شامة : المصدر السابق ، ص٩٥ ٠ ويرى سبط
الجوزى والعماد الحنبلي بدفع الصبي ٤ دنانير ، والطفل دينار ٠

١٢ تشرين اول ١١٨٧ [1] ، وأقيمت فيها صلاة الجمعة التالية في شهر شعبان ، وأمر صلاح الدين بعمل منبر للمسجد الاقصى ، وكان نور الدين قد أمر بعمل منبر ليس كمثله في المنابر فأمر بأحضاره واقامته في المسجد الاقصى ٠

وعمد صلاح الدين الى ازالة التغيرات التي احدثت بعد احتلال المدينة من قبل الصليبيين سنة ٤٩٢هـ من ذلك كشف الجدار الساتر لمحراب المسجد الاقصى لاقامة خطبة الجمعة ، وأمر بفرش صحن الجامع بالبسط النفيسة بدلا من الحصر ، كما أضاء المسجد الاقصى بالقناديل ، وعين اماما وخطيبا ، وأوقف له دارا وأرضا وبستانا ، وأمر بتحويل مراكز الدواوية والاستبارية الى مدارس ، وأغدق عليها الاموال وأقطع عليها الاقطاعات ، ثم رحل عن القدس بعد أن أمضى ثمانية وعشرين يوما ليستكمل رسالة الجهاد التي نذر نفسه من اجلها ٠

وصل صلاح الدين عكا بصحبة اخيه العادل في اول رمضان ، ومنها توجها الى صور فنزل عليها في التاسع من رمضان وحاصرها حصارا شديدا ، ولم يتمكن من ضمها بسبب قسوة الشتاء وكثرة الامطار ، فأمر العساكر بالتفرق الى اهاليهم للاستراحة على ان يعودوا في اقرب فرصة بعد انقضاء فصل الشتاء لمواصلة عملية الجهاد [2]٠

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٨٧، ابن الاثير : الكامل، ج١١،ص٥٤٩ : ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢١٤٠ أبو شامة : كتاب الروضتين، ج٢،ص ٩٥٠

(٢) ابن الاثير : الكامل،ج١١، ص ٥٥٤،٥٥٥ ٠ ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٨٤، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٣٨ ٠

ولم يكد فصل الشتاء ينتهي حتى خرج صلاح الدين من عكا لاكمال الفتوح ، فأمضى ستة أشهر حرر خلالها اللاذقية ، وجبلة ، وانطرسوس، وبكاس ، وبرزية ، ودربساك ، وصفد وكوكب وعددا كبيرا من الحصون والقلاع الصليبية المجاورة [(1)] .

الحملة الصليبية الثالثة :-

لقد أحدث انتصار المسلمين في حطين وتحرير القدس من الصليبيين ، والانتصارات المتلاحقة في بلاد الشام رد فعل عنيف في اوروبا، دفع بملوكها الى تناسي احقادهم ، والاتفاق على حرب المسلمين لاعادة بيت المقدس الى حظيرتهم ، ومن أجل ذلك توسل البابا كيلمنت الثالث بكافة الوسائل لاسترضاء الامبراطور الالماني فردريك بربروسا ، كما بعث برسائله الى كل من ملوك فرنسا وانجلترا وامبراطور المانيا لتناسي خلافاتهم ، والتوجه الى المشرق الاسلامي لاستعادة القدس من المسلمين.

وكان أول من استجاب لدعوة البابا على تسيير حملة صليبية فردريك بربروسا امبراطور المانيا ، الذى سار بجيشه المنظم سالكا الطريق البرى باتجاه القسطنطينية عبر المجر ، وما أن وصل الى القسطنطينية حتى واجه عداء شديدا من الامبراطور البيزنطي اسحق الثاني انجليوس الذى بعث الى خليفه صلاح الدين واعدا اباه بان لا يمكنهم من عبور بلاده ، وكل ما فعله انه لم يزودهم بالمؤن

---

(1) ابن الاثير : الكامل، ج11 ، ص557 .

والعتاد فاشتدت ضائقتهم وحل بهم كرب شديد .[1] ، وزادتهم متاعبهم اثناء عبورهم أسيا الصغرى ، فقد تعرضوا للخطف وللبرد الشديد ، وفي اثناء استحمام الامبراطور في احد الانهار غرق ومات [2].

وانقسم الالمان من بعده ، فبعضهم مال الى تولية ابنه فردريك السوابي وأخرون تولية اخيه اكبر منه ، تولى الابن قيادة الجيش الالماني بعد ان عاد القسم الاكبر منه الى بلاده ، ووصل من تبقى الى انطاكية [3] ، وأشار حاكم انطاكية ، وتوجه الجيش الالماني نحو حلب ، فلقوا هزيمة نكراء ، استولى المسلمون على الكثير من الاموال والاسلحة وقتلوا وأسروا العدد الكبير الذين تم بيعهم بأثمان زهيدة [4] ، وقرر فردريك التوجه الى عكا ، فقتل المسلمون وأسروا من جيشه اثناء مروره لطرابلس ، ولم يصل معه الى عكا سوى حوالي ألف رجل من اصل مائتي الف مقاتل [5] ، فوصلوا عكا في ١٦ رمضان ٥٨٦هـ/١١٩٠م [6] . واختاروا التي كانت بيد الصليبيين، فقد اغتصبها الصليبيون ثانية بقيادة جناى لوزجنان الذى اطلق سراحه صلاح الدين بعد اسره في حطين ، وتعهد له بعدها

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج١٢، ص٤٨ . ابو شامة : كتاب الروضتين، ج٢،ص١٥١ . ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٠٧، ٣٠٨ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(٣) ابن الاثير المصدر والصفحة. ابو شامة: المصدر السابق ص ١٥٦ .

(٤) ابن الاثير المصدر السابق، ص٤٩ . ابو شامة: المصدر السابق والصفحة، ابن واصل: المصدر السابق، ص ٣١٣ .

(٥) رنتسمان تاريخ الحروب الصليبية ج٣، ص ٣٠ .

(٦) ابن الاثير المصدر والصفحة+ ابو شامة: المصدر نفسه ص ١٥٦ .

المسلمين ، فقد قام هذا بحملة بالاتفاق مع حاكم صور كونراد مونتفرات فاحتلها في رجب من عام ٥٨٥هـ/ أب ١١٨٩م ٠

وترك كل من أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الاسد ملك بريطانيا الغرب في حملة صليبية في صيف ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م ، واختارا الطريق البحرية ، مارين بجزيرة صقلية ، فوصل فيلب الى صور حيث رحّب به قريبه كونراد مونتفرات الذى صحبه الى عكا فوصلاها في ١٢ ربيع الاول من عام ٥٨٧هـ/ ٢٠ نيسان ١١٩١م (١) ٠

أما ريتشارد فقد غادر صقلية في نيسان قاصدا عكا ، فهبّت عاصفة قوية اثناء سير سفنه في البحر ، ففقد عددا من سفنه ، فأخذ يجوب جزر البحر المتوسط بحثا ، فانتهى به الامر في جزيرة قبرص ، حيث وجد السفن الضائعة ، وكان حاكم قبرص اسحاق كومنين (٢) ، ومنها توجه نحو صور ، فرفضت حاميتها السماح له بالدخول وفقا للتعليمات التي تركها كونراد (٣) ، فاضطر الى الاتجاه مباشرة الى عكا فوصلها في ١٣ جمادى الاولى سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م (٤) .

---

(١) ابن شداد النوادر السلطانية، ص١٥٧٠ ابو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص ١٨٣٠
ابن العديم: زبد الحلب، ج٣، ص ١١١، ابن العبرى: مختصر الدول،ص ٢٢٢ ٠
عاشور : الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٦٣٠ باركر : الحروب الصليبية، ص ٨٩٠

(٢) سعيد عاشور : قبرص والحرب الصليبية ، ص ٢٤ ٠

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٨٦٤٠

(٤) ابن شداد :المصدر السابق،ص١٦١ ٠ابن واصل: مفرج الكروب،ج٢،ص ٣٥٠٠ ابن الاثير : الكامل ، ج١٢ ، ص ٦٤ ٠

لقد كان وصول هذين الطكمين ، وهما محملات بالاسلحة والذخائر والمؤن ، ومعهما الرجال قد اعطى الصليبيين وقعة قوية ، فقد وصل ملك فرنسا ومعه ست سفن كبار ، ومع ريتشارد خمس وعشرون قطعة مملوءة بالرجال والاموال ٠

وحشد صلاح الدين وزحف عسكره على الصليبيين الا ان تلك الهجمات الكاسحة لم تؤثر على صفوف الصليبيين الذين ثبتوا امام هجمات المسلمين ، ولم يبق في عكا الا الحامية الاسلامية ، وأخيرا تمكن الصليبيون منهم فساقوهم وكان زهاء ثلاثة آلاف مسلم الى تل العياطين، وقتلوا الاسرى المسلمين عن آخرهم في ٢٧ رجب ٥٨٧هـ/ ١١٩١م (١) .

وفي مستهل شعبان من سنة ٥٨٧هـ/ أواخر آب ١١٩١م توجه ريتشارد باتجاه حيفا ، وما ان علم صلاح الدين بمسيرهم حتى نادى عسكره بالجهاد ، فقامت فرقة من جيش المسلمين بمضايقة الصليبيين اثناء مسيرهم، بينما قامت فرقة اخرى بالانقضاض على مؤخرة جيشهم ، فقتلوا منهم جماعة وأسروا جماعة اخرى (٢) ، ولكن الصليبيين تمكنوا من دخول حيفاء، ومنها نزلوا الى قيسارية ، فهاجمهم المسلمون وأسروا عددا كبيرا منهم (٣) ، ولاقى الصليبيون اثناء زحفهم مشاق كثيرة ، وأصيب ريتشارد بجروح ورضوض مما جعله يطلب باب المفاوضات مع صلاح الدين ، الذى تظاهر

---

(١) ابن شداد : المصدر السابق ١٧٢ ، ابن واصل:ص ٣٦٣، ابو شامة:المصدرنفسه ص ١٨٩ .

(٢) ابن الاثير :الكامل ج١٢، ص ٦٩ ، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ١٨٣ ٠

(٣) ابن الاثير المصدر السابق والصفحة ٠

بالقبول كسبا للوقت حتى تصل قواته من التركمان [1] ، وفشلت المحادثات ، فكان لا بد من اللقاء الذي تم في أرسوف [2] .

سبق الصليبيون المسلمين الى ارض المعركة ، ودارت معركة بين الطرفين في شعبان من عام ٥٨٧هـ/ ايلول ١١٩١م ، وقد سارت المعركة باديء الامر في صالح المسلمين ، فقد احاط فرسان المسلمين بالصليبيين ، وأوشكوا أن يقضوا عليهم كما حصل في معركة حطين ، لكن الصليبيين اجتمعوا وحملوا على المسلمين حملة واحدة من كل الجوانب [3] ، فأبعدوهم على الرغم من تشجيع صلاح الدين للمقاتلين لم يستطيعوا القضاء عليهم وان كانوا قد تمكنوا من دحرهم وأجبارهم على التراجع [4] .

ولما لم يستطع الصليبيون تحقيق اهدافهم في استعادة بيت المقدس ، ورأوا استحالة ذلك ، عاد الملك فيلب اغسطس ملك فرنسا خائبا الى بلاده وبقي ريتشارد وحده في الميدان ، ولم يجرؤ ريتشارد عقب معركة أرسوف على المسير الى بيت المقدس مباشرة بل اتجه بعدها الى يافا ، فاعاد بناء اسوارها ، وأضاع وقتا ثمينا تمكن صلاح الدين خلاله من اكمال استعداداته وتنظيم قواته [5] .

---

(١) انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢، ص ٨٧٥ .

(٢) أرسوف مدينة تقع على الساحل بين قيسارية ويافا (ياقوت معجم البلدان) .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص١٨٣، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٢٦٥ .
انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢، ص ٨٧٥ .

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ١٨٤ .

(٥) ابن الاثير : المصدر السابق، ص ٧٢ ، ابو شامة : كتاب الروضتين، ج٢، ص ١٩٢ .

وأخيرا قرر ريتشارد المسير الى بيت المقدس في ذى القعدة ٥٨٧هـ / ١١٩١م وما أن وصلوا اليها حتى أصيب بخيبة الامل ، فقد قام صلاح الدين بتخريب اللد والرملة حتى لا يستفيد منهما ، وتعرض جيش ريتشارد الى خسائر فادحة في العتاد والارواح بفضل الاغارة على مؤخرة جيشه من قبل البدو الاغراب الذين كبدوهم خسائر في الاموال والامتعة والخيول [١] .

وفي الوقت نفسه أعدّ صلاح الدين خطة للدفاع عن المدينة وحمايتها ، فقسّم سور المدينة ، ووزع قوّاده ، وشرع في عمارة الاسوار . بحيث رأى ريتشارد استحالة احتلالها ، مما دفعه الى انهاء الحرب وطلب الصلح مع المسلمين بأية وسيلة كانت .

ولعل هناك مجموعة عوامل دفعت ريتشارد الى اتخاذ قرار الصلح، فالمقاومة العفيفة التي كان يقوم بها المسلمون والشجاعة النادرة التي كان يقوم بها الفرسان الابطال ضد الفرنج ، وتحقيق عدة انتصارات ومنها، استيلاء المسلمين على يافا في ٢٠ رجب ، من عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م [٢] . ثم الخلاف الذى تمّ بين ريتشارد وكونراد مونتفراد صاحب مدينة صور، فأخذ كل منهما يراسل صلاح الدين من أجل الصلح ، فعرض كونراد على صلاح الدين المصالحة بشرط ان يتنازل له صلاح الدين عن صيدا وبيروت، مقابل أن يقدم عكا للمسلمين وبقية البلاد [٣] ، لكن كونراد لم يطل به العمر

---

(١) ابن شداد :النوادر السلطانية، ص ١٩٢،١٩٣ : سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ ، ص ٨٧٧ ـ ٨٧٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل، ج١٢ ، ص ٨٤ .

(٣) ابن شداد :النوادر السلطانية،ص ٢٠٣ .ابن واصل: مفرج الكروب ج٢، ص ٣٧٢ .

فقد تمّ اغتياله على يد اثنين من الباطنية في نيسان عام ١١٩٢م [(١)] ، كما وصلت أخبار سيئة لريتشارد من بلاده تؤكد فتنة أخيه حنا ضده الامر الذى تطلب منه سرعة العودة الى بلاده [(٢)] ، كما لا تنس مرض ريتشارد مرضا شديدا بحيث اشرف على الموت [(٣)] ، وموقف صلاح الدين بامداده بالثلج والفاكهة [(٤)] .

وبعد مراسلات عدة ، والحاح شديد وصل لدرجة الرجاء " بالله عليك ، سلّم على السلطان ، وقل له أحب سؤالي في الصلح " [(٥)] وكان صلاح الدين يدرك أن الجهاد هو السبيل الوحيد لحمل الصليبيين على الرحيل نهائيا من البلاد المقدسة دون قيد او شرط ٠

وأخيرا وبعد مفاوضات عدة تمّ اتفاقية هدنة بين المسلمين والصليبيين ، بمدينة الرملة في ٢٢ شعبان ٨٨ه/ ٢ ايلول ١١٩٢ان [(٦)] جاء فيه :

١ ـ يسبق الصلح هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاث سنوات وثلاثة اشهر ٠ في البر والبحر ٠

---

(١) انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٨٨٥٠

(٢) ابن خلدون : التاريخ ، ج ٥ ، ص ١٠٥ ٠

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق والصفحة ٠

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٢٣٢٠ ابو شامة :كتاب الروضتين، ج٢،ص ٢٠٣، ابن واصل: مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٥٥ ٠

(٥) أبو شامة: المصدر السابق،ص٢٠٢٠ ابن واصل: المصدر السابق، ص ٣٩٩ ٠

(٦) ابو شامة: المصدر السابق ص ٢٠٣٠ ابن واصل: المصدر السابق، ص ٤٠٤ ٠

٢ - يسلم الصليبيون للمسلمين عسقلان وغزة والداروم ٠

٣ - للفرنج البلاد الساحلية ما بين صور ويافا ٠

٤ - اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين ٠

٥ - للمسلمين بلاد الاسماعيلية الباطنية ، وكذلك للفرنج انطاكية وطرابلس

٦ - من حق المسيحيين الحج الى بيت المقدس دون ان يدفعوا اية ضرائب للمسلمين ٠

وبانعقاد اتفاقية هدنة الرملة فشلت الحملة الصليبية الثالثة التيّ عجزت بدورها عن تحقيق اهدافها بعد ان تكبدت الخسائر الفادحة للجموع الصليبية ، ٠

ويبدو ان موافقة صلاح الدين ومقاتليه على قبول هدنة مؤقتة مع الصليبيين كان لاتخاذ والاستفادة من الزمن للاعداد للحروب القادمة التي لا بد منها ، طالما أن الصليبيين لم يخرجوا كليا من بلاد الشام ، خاصة وان الاستمرار في القتال قد انهك العساكر الاسلامية كثيرا واجهدهم لفقدان العدة وغلاء اسعار الغلات ٠

ان صلاح الدين لم يعقد مع الصليبيين معاهدة سلام بل هدنة أمن ، فمعاهدة السلام تنتفي فيها حالة الحرب ، بينما الهدنة ، يكون السلم فيها مرحلة يمكن البدء الحرب بعد انقضائها [1] ، ومعاهدة السلام يعني تعطيل الجهاد وتوقفه بالنسبة لصلاح الدين لذلك ورد على لسان صلاح

---

(١) خاشع المعاضيدي وزملاؤه : الوطن العربي والغزو الصليبي ص ١٩٢ ٠

الدين : " حتى صالحناهم لم نؤمن غائلتهم ٠٠ والمصلحة الانزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل او بأتينا الموت " [1].

وبعد عقد الهدنة ، طهّر صلاح الدين بيت المقدس ، وجعل كلمة الله هي العليا ، واستردت القدس مكانتها العربية الاسلامية ، ثم عاد صلاح الدين الى دمشق ، ولم يمض على الهدنة سنة حتى مرض صلاح الدين الايوبي ، فانتقل الى الرفيق الاعلى ٥٨٩هـ/ ١١٨٩م ٠

خلفاء صلاح الدين ودورهم في مقاومة الصليبيين :-

انقسام الدولة الايوبية :-

كانت وفاة صلاح الدين خسارة عظيمة اصابت الامة العربية الاسلامية ، فقد اثر غيابه على وحدة الجبهة الاسلامية ، اذ سرعان ما دب النزاع بين افراد البيت الايوبي ، وبدأ الانقسام يهدد صرح الوحدة الاسلامية التي بناها ٠

لقد آلت مصر الى ابنه الملك العزيز عثمان ، واحتفظ ابنه الافضل نور الدين بدمشق وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبانياس ، واستولى الملك الظاهر غازى على حلب ، أما الملك العادل ابو بكر ايوب فقد كان من نصيبه الكرك والاردن بالاضافة الى الجزيرة وديار بكر ، ورأى الملك العادل أن يظل في الجزيرة ، كما كانت اليمن من نصيب سيف الدين طغتكين ٠٠

---

(١) الاصفهاني: الفتح القسي ، ص ٤٤٠ ٠

وكان الملك الافضل - الابن الاكبر لصلاح الدين - هو صاحب الزعامة بين الايوبيين الا انه لم يكن مرغوبا فيه لسوء تصرفاته ، وهذا ادى الى الانقسامات بين الايوبيين ، مما دفع الملك العزيز للخروج من مصر الى دمشق في محاولة لانتزاعها من اخيه الافضل ، وهذا استنجد بعمه الملك العادل الذى حال دون وصول العزيز الى دمشق (١) ، ولم يطل العمر بالملك العزيز امير مصر فمات فأعيد توحيد البلاد من جديد تحت زعامة الملك العادل بعد أن كان قد سيطر على بلاد الشام .

الحملة الصليبية الربعة :-

ان وفاة صلاح الدين ، وما عقب بعد ذلك من منازعات بين البيت الايوبي شجعت الصليبيين القيام بالحملة الصليبية الرابعة ، لا سيما وأن صلح الرملة كان هدنة مؤقتة .

قاد الحملة امبراطور المانيا هنرى السادس ، وهدف حملته القسطنطينية اولا ثم بيت المقدس فيما بعد .

وقد سهل هنرى توافد بعض جموع الصليبيين الى الشام الامر الذى ادى الى توتر العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، مما دفع الملك العادل الى طلب النجدة وتعبئة الجيوش ، فاحتشد الجانبان قرب غزة وهناك دارت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون وتكبد الصليبيون خسائر

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص ٧١ .

فادحة في الارواح والاموال [1] ، ثم تقدم الملك العادل بعد هذا النصر نحو مدينة يافا ودخلها منتصرا [2].

وعندما تمكن الملك عموري لوزجنان ملك قبرص من الاستيلاء على بيروت تعويضا عن يافا ، ورأى أن لا فائدة من قتالّ الملك العادل وأن لا امل من وصول الحملة الصليبية الرابعة التي استقرت في القسطنطينية جدّد أحياء صلح الرملة السابق مع الاحتفاظ بالفتوحات الجديدة، حيث أخذ الصليبيون بيروت وجبيل ، وحرر الملك العادل يافا وقسمت صيدا بين الطرفين واتفقا على ان تكون مدة الصلح ثلاث سنين [3].

وعلى الرغم من أن فترة الهدنة مرت بشكل عام بسلام الآ انه حدث عدة مناوشات بين الطرفين ، فقد زحف الملك العادل على مدينة طرابلس في ذى الحجة ٦٠٣هـ/ تموز ١٢٠٧ وتمكن من تحرير حصن القليعات، ومحاصرة الملك العادل لطرابلس اجبر اميرها بوهمند الرابععلى عقد صلح مع المسلمين [4].

الحملة الصليبية الخامسة ٦١٤هـ/ ١٢١٧ ـ ١٢١٨م :ـ

استفاد الصليبيون من الهدنة المعقودة مع المسلمين بقيادة الملك

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين، ج٢ ، ص ٢٣٤ ٠

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٥ ، ابن واصل : المصدر السابق ص ٧٥ ٠

(٣) ابو شامة :كتاب الروضتين، ج٢، ص ٢٣٣، عاشور : الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٢٤٠

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج١٢ ، ص ٣١٤ ٠

عند المسلمين واحكموا سيطرتهم على دمياط [1].

اغتر الصليبيون بما حققوه في دمياط ، فقرروا التوجه نحو القاهرة ، ورفضوا نداءات الملك الكامل المتكررة بقبول الصلح والانسحاب من مصر مقابل بعض الامتيازات في بلاد الشام ، وزاد تشددهم عندما وصلت اليهم امدادات كبيرة من اوروبا [2].

دخل الصليبيون في طريقهم نحو القاهرة في مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات : بحيرة المنزلة شرقا وفرع دمياط غربا والبحر الصغير غربا ، وكان دخول الصليبيين في ١١/ جمادى الثاني ٦١٨هـ اول ليلة من شهر آب من عام ١٢٢١ أي وقت فيضان النيل وقسوة حرارة الجو ٠

وفرح المسلمون لمشاركة النيل في حرب الغزاة ، وسارع الملك الكامل الى حشد كل قواته وامكانياته ، فأمر بفتح كل السدود، ولم يشعر الصليبيون الاّ وقد غرقت اكثر الارض المحيطة بهم ، فأرادوا العودة الى دمياط ، فوجدوا المسلمين لهم بالمرصاد [3]، فأخذ الصليبيون يتذللون للملك الكامل بقبول الصلح ، فأرسلوا اليه في ٩ رجب ٦١٨ هـ / ٢٨ آب سنة ١٢٢١م يطلب الصلح ، ويعرضون عليه استعدادهم للجلاء عن دمياط وأرض مصر مقابل السماح لهم بالخروج سالمين [4].

---

(١) لمزيد عن مؤامرة ابن المشطوب انظر : ابو المحاسن:النجوم الزاهرةج٦،٢٣٠،٢٣١
عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢، ص ٩٨٢ ، ٩٧٣ ٠

(٢) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص٢٠٧ ٠عاشور : النجوم الزاهرة،ج٦، ٢٣٠ ، ٢٣١ ٠

(٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ، ص ٢٤١ ٠

(٤) المصدر السابق ٠ ص ٢٤٢ ٠

وقبل الكامل اجابة الصليبيين واشترط عليهم ان يبعثوا برهائن من ملوكهم ، فأرسلوا اليه بعشرين رجلا منهم الملك حنا نفسه ومندوب البابا بلاجيوس [1] وجلي الصليبيون عن دمياط في ١٩ رجب ٦١٨هـ ايلول من عام ١٢٢١م ، وعقد الملك حنا برين هدنة مع الملك الكامل لمدة ثمان سنوات " وبذلك فشلت الحملة الصليبية الخامسة دون أن تحقق أهدافها بفضل جهاد المسلمين ومحاربتهم للغزاة .

الحملة الصليبية السادسة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٨م :-

اقلع الامبراطور فردريك الى بلاد الشام في ٢٤ شعبان د٦٢ هـ / ٢٨ تموز ١٢٢٨ م ، بعد ان سخط عليه البابا جريجوري [2] ، بناء على العلاقة الجيدة التي كانت تربطه مع الملك الكامل فقد جاء مدعيا بأنه جاء لمساعدة الكامل ضد أخيه المعظم بينما كان يهدف الى تحقيق نصر على خصمه البابا والكنيسة التي ناصبته العداء .

ويبدو من الكتب التاريخية ان فردريك كان يكن كل حب وتقدير للعرب ، فكان يجيد اللغة العربية ويتذوق الشعر العربي ويقرب منه الادباء العرب ، وكان يراسل السلطان الكامل ويرسل له مسائل في الهندسة والحكمة والرياضة ويطلب منه حلها ، وكان الكامل يحلها له [3] ، لذلك لم يتخذ فردريك الصليب علما له ، بل النسر عوضا

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١٠٠٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص ٢٣٢ .

العادل ، وأتاحت لهم الفرصة في الاتصال بغرب اوروبا والبابا من اجل التخطيط والتنسيق ضد المسلمين في المشرق ، فتهافت الصليبيون في الحملة الصليبية الخامسة ٦١٤هـ/١٢١٧م، بناء على دعوة البابا أنوسنت الثالث ، فوصلت عكا ، حيث عقد مجلس الحرب ، وبعدها قاموا بعدة هجمات في جبال لبنان ، ثم خرجوا من عكا الى طرابلس .

لقد اتخذ الصليبيون خطة احتلال مصر ، لانهم يرون في مصر المخزن الذي يمد القوات الاسلامية في بلاد الشام بالعدد والعدة لغناها وسعتها [1]، ومن مصر يتوجهون الى بلاد الشام .

وفي ١ ربيع اول ٦١٥هـ/ ٢٧ أيار ١٢١٨م خرج الملك حنا دي برين قاصدا مدينة دمياط المصرية ، وفي بداية حزيران وصلت السفن الصليبية الى مصب النيل فرع دمياط حيث نزل الصليبيون على الضفة الغربية ، فوجدوا المدينة محكمة التحصين ، مما دعاهم الى النزول الى الجانب الشرقي من النيل .

انتقل الملك الكامل الايوبي حاكم مصر نيابة عن ابيه العادل الى موقع القتال ، وتولى قيادة الجيش واستنفار العربان ، وأخذ يقوم بهجوم مضاد كبّد فيه الفرنج خسائر كثيرة ، مما دفع بالصليبيين لاقامة برج ضخم من الخشب نصبوه علىّ سفينتين يصل بينهما جسور وحافلات ، استطاعوا به التحرك داخل المياه ، مما فتح الطريقّ امام الصليبيين لمهاجمة المدينة بحرا وبرا ، واستغرق ذلك ثلاثة اشهر

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٩٦١ ـ ٩٦٣ .

كاملة ، ولما علم الصليبيون بهذا النصر أرسلوا العدد بقيادة الكاردينال بلاجيوس مندوبا عن البابا وقائدا أعلى للصليبيين في مصر .

وعلى الرغم من بسالة المدافعين وصمودهم الذي دام تسعة اشهر ، وشدّة التحركات العسكرية التي قام بها الملك المعظم الايوبي في جبهة الشام لاشغالهم وصرف الفرنج عن مصر ، الا ان الصليبيين تمكنوا من احتلال دمياط في شعبان ٦١٥هـ/ ٥ تشرين الثاني ١٢١٩م ووضعوا في أهلها السيف قتلا وأسرا [(١)] .

ولعلّ سقوط دمياط يعود لأسباب عدّة أهمها [(٢)] :-

أ - الاضطرابات الداخلية التي اثارها العربان ، فبالغوا في الفساد حتى انّ خطرهم اصبح على المسلمين .

ب - وفاة الملك العادل في السابع من جمادى الاخرة عام ٦١٥/في آب ١٢١٩م مما ادى الى انقسامات بين اولاده الامر الذى ادى الى تفتيت الطاقات ضد العدو المشترك .

ج - قيام عماد احمد بن علي المعروف بابن المشطوب بمؤامرة داخل معسكر الكامل لاحلال اخيه بدلا منه ، مما ادى الى اضعاف جبهة القتال لانقسام الجيش ، وهذا دفع الملك المعظم بالحضور من الشام والقاء القبض على ابن المشطوب ، واعادة الكامل. وفي هذه الفترة كان الصليبيون قد استغلوا الفترة المضطربة

---

(١) ابو شامة : ذيل الروضتين، ص١٠٩ز ١١٠، عاشور : الحركة الصليبية، ج٢،٩٦٩ز ٩٧١

(٢) انظر : خاشع المعاضيدى وزملاؤه : الوطن العربي والحروب الصليبية، ص ٢٠٥ .

عنـه .

ولـم يكـد يستقـر بفردريـك المقـام حتى اصيب بخيبـة أمـل ، فقـد تبـدّل الموقـف في بـلاد الشـام ، فقـد تـوفـي الملـك المعظم واستقـر الوضـع بين ابنـاء البيـت الايوبى ، فلـم يكـن الكامـل بحاجـة لمساعـدة فردريـك ، فتنكر لوعـوده لـه ، فبـادر فردريك بارسـال الهدايـا الثمينـة جدا الى الملـك الكامـل ، وأعلمـه بأنـه جـاء الى الشـام وليس في نيتـه الاستيلاء علـى ارض المسلميـن ، انمـا تثبيـت عرشـه في الغـرب الـذى بـات مزعزعـا بفضـل محاربـة البابـا ، وأعلمـه بضـرورة تسلمـه القـدس [1].

وأجابـه الكامـل بلطـف عبـارات تتضمن الرفض ، ثم لجـأ فردريـك الى الاستعطـاف والتذلـل للسلطـان : " انا مملوكـك وعتيقـك ، ليس لي عمـا تأمـره خـروج ، وأنـت تعلـم أنـي أكبـر ملـوك البحـر ، وقـد علـم البابـا والملـك باهتمامـي وطلوعـي ، فان رجعـت خائبـا انكسـرت حرمتي بينهم [2] ، فان رأى السلطـان أن ينعم علي بقبضـة البلـد والزيـارة فيكـون صدقة منه [3].

ونجحـت الاستعطافـات فتمّ عقـد صلـح بين الطرفيـن لمدة عشـر سنـوات ابتـداء من ١٨ ربيع الاول ٦٢٦هـ/ ١٨ شبـاط ١٢٢٩م [4]؛ ، تسلـم القـدس على ألاّ تقـام به حصـون ، وأن يبقـى مسجـد عمـر في يـد المسلميـن ويتسلـم

---

(١) المقريزى: السلوك ، جا ، ص ٢٣٠ .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ ، ص ١٠٠٩ .

(٣) عاشور : المرجع السابق ، ١٠١٠ .

(٤) المقريزى : السلوك ، جا ، ص ٢٣٠ .

الصليبيون الناصرة ، ولكن يسمح للمسلمين بدخول بيت لحم ، كما يتسلم الصليبيون صيدا ، ويتعهد فردريك بعدم مساعدة الصليبيين الذين يهاجمون الكامل .

وفي يوم السبت ٢٧/٥/١٢٢٩م/ ٣ رجب ٦٢٦ هـ رحل الامبراطور فردريك، وتوّج في القدس وزار المسجد الاقصى ، وطلب من المؤذن أن يؤذن وان يقيم الشعائر الدينية ، ثم رحل الى عكا ومنها عاد الى بلاده ايطاليا .

واستنكر المسلمون عمل الكامل واتهموه بخيانة الاسلام ، وأظهروا موجة من السخط واشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وقام الائمة والمؤذنون على باب مخيم الكامل في غير وقته ، فعظم على أهل الاسلام هذا البلاء واشتد الانكار على الملك الكامل وكثرت عليه الشناعات في سائر الاقطار [(١)] .

وفي اوائل أذار سنة ١٢٣٨م/ ٢١ رجب ٦٣٥هـ توفى السلطان الكامل، وكانت وفاته بداية لتفكك الدولة الايوبية وانهيارها ، فقد دب نزاع خطير بين ولديه العادل (الصغير) والصالح أيوب ، ثم تعاظم النزاع حتى شمل معظم امراء البيت الايوبي الذين استعانوا بالافراد الخوارزمية ضد بعضهم ، الامر الذى ادى الى مجيئهم وتكتلهم في بلاد الشام.

ولم يكد ينتهي الصلح الذى عقده الامبراطور فردريك مع السلطان الكامل ، الذى انتهى (١٢٣٩) ، حتى قامت البابوية بالدعوة لحملة صليبية جديدة وقد وصلت الحملة في اول صفر ٦٣٧هـ/ أيلول من عام ١٢٣٩م الى عكا

---

(١) انظر المفاوضات: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٤١ ، المقريزى: السلوك ، ج١ ص٢٣٠، ٢٣٢، ابو الفداء: المختصر، ج٣ ، ص ١٤١ .

ومن هنـاك تجمهـر الصليبيـون في محاولـة للسيطـرة على القدس سيطـرة تامـة ، ولكـن الناصـر داوود ابن الملـك المعظـم الايوبـي حاكـم الكـرك ، اسـرع بالتوجـه الى القـدس ، واستعادهـا ، وجـدد اسوارهـا [1] ، وما ان سمع الصليبيـون في عكـا باعـادة القـدس حتى قـرروا السيطـرة على مصـر اولا ثم دمشـق ، وعندهـا يجبـرون المسلميـن على التنـازل عن القـدس ، وفعـلا خـرج قسم كبيـر منهـم نحـو عسقـلان ، وتمكنـوا من السيطـرة على قافلـة اسلاميـة محملة بالبضائع ، ثم اندفعـوا نحـو غـزة ، وهنـاك التقـت بهم قـوات المسلمين الذين أنزلـوا بهم خسـارة فادحـة ، فقـد قتـل من الصليبييـن ألف وثمانمائـة رجـل وأسـر بعض زعمائهـم ، وأسـر مائتيـن وخمسيـن منهـم أخـذوا الى مصر [2].

لم يستغـل الايوبيـون نصرهـم بـل دخلـوا في نـزاع حـاد بينهـم انتهـت بعـزل الملـك العـادل الثاني عن حكـم مصـر وتنصـب نجم الديـن أيـوب ذي القعدة ٦٣٩هـ/ ١٢٤٠م ، وقـد استـاء من هـذا التصـرف حاكـم دمشـق الصالـح اسماعيـل فاضطـر لارضـاء غـروره بالاستعانـة بالصليبييـن ، ومنحهـم بيـت المقـدس بمـا فيهـا الاردن وطبريـا وعسقـلان وسائـر بـلاد الساحـل [3].

استـاء المسلمـون من تصرفـات الخائـن الصالـح اسماعيـل وشغبـوا عليـه ، وقطعـوا الخطبـة في المساجـد باسمه والدعـاء لـه ، وبفضـل تعاونـه مع الفرنج سيطـر على الموقـف في بلاد الشام ، فتوجه نحو مصـر ليضمهـا ،

(١) المقريزى: السلوك، ج١ ، ص ٢٩١ .

(٢) انظر : عاشور : الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٣٥، ١٠٣٦،

(٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٣٢٢،المقريزى: السلوكج١ ، ص ٣٠٣.

(٤) ابو المحاسن:المصدر السابق والصفحة، المقريزى: المصدر السابق ص ٣٠٨.

ومعه جيش من الصليبيين ، ولكن ما أن التقت قوّات الطرفين قرب غزة ، حتى انشقت قواته الشامية وانضمت للقوات المصرية ليشتركوا جميعا في حرب الصليبيين ، فأنزل الجيش الاسلامي بالصليبيين خسائر فادحة ، وأسروا منهم خلقا لا يحصى ساقوهم الى مصر [(1)] ، وقد دفعت الهزيمة يثبوت الرابع خائبا الى اوروبا ليأتي محله ريتشارد كورنول (اخو هنري الثالث ملك انكلترا) ، غير ان هذا عاد الى انجلترا بعد عدة أشهر دون أن يحقق أي هدف .

ستدعى الصالح ايوب - حاكم مصر الخوارزمية - فجاء اليه عشرة آلاف رجل ، فاستولوا على طبريا ونابلس وحرروا القدس في ٤ صفر ٦٤٢هـ/ ١١ تموز ١٢٤٤م بسهولة بالغة ، وأجبروا الصليبيين على مغادرة المدينة الى يافا ، وكان عددهم ستة آلاف لكن الخوارزمية دبروا لهم مكيدة فلم يصل منهم سوى ثلاثمائة ، وقتل معظمهم [(2)] .

حاول الصالح اسماعيل مع الصليبيين التوجه الى مصر لأخذ الثأر من الصالح أيوب ، وحصلت معركة حاسمة عند غزة في١٧ تشرين الاول ١٤/ جمادى الاول / ٦٤٢ هـ ، وتمكن جيش الخوارزمية بقيادة الصالح بن ايوب من قتل حوالي ثلاثين ألفا ، وسيق منهم بحدود ألف أسيرا الى مصر [(3)] ، وتتبع المنتصرون فلول الجيش المنهزم حتى وصلوا عكا ، ومن

---

(١) المقريزي: السلوك،ج١، ٣٠٨، أبو المحاسن:النجوم الزاهرة،ج٦،ص ٣٢٢.
عاشور : الحركة الصليبية، ج٢،٧ ١٠٣ - ١٠٣٨.
(٢) المقريزي:المصدر السابق ٣١٥،٣١٦، عاشور :الحركة الصليبيةج٢ ١٠٤٢-١٠٤٦.
(٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦ ، ٣٢٣ .

هناك سار الصالح ايوب لمعاقبة المنافقين والخونة من الحكام الذين تعاونوا مع الصليبيين ، وهرب الصالح اسماعيل بأمواله من دمشق ، وأعاد الملك الصالح أيوب وحدة مصر ودمشق وبيت المقدس ، وقدم له حكام حماة وحمص وسائر الامراء الولاء والطاعة.

الحملة الصليبية السابعة ولويس التاسع: ٦٤٧هـ/ ١٢٤٥م:

بعد تحرير القدس على أيدي الخوارزمية بقيادة الصالح أيوب. أرسل بطريق القدس سفارة الى المغرب الاوروبي يدعوهم فيها الاسراع بانقاذ مملكة بيت المقدس الصليبية السابعة بمساندة البابا أنوسنت الرابع وقيادة الملك لويس التاسع الفرنسي ، ومعه عدد من النبلاء والاشراف مما جعل الحملة تتخذ الطابع الفرنسي [1].

استعد لويس للحملة مدة ثلاث سنوات ثم رحل في ١٢ أب ١٢٤٨م/ ٢ ربيع الثاني ٦٤٦هـ من باريس ، وقد وصلت أخبار الحملة سرا عن طريق الامبراطور فردريك الثاني ، الذي أرسل الى الصالح أيوب سفارة متخفية بزي تجار مسلمين ، أخبرت الصالح بأهداف الحملة ، ومكنتهم من أخذ الاحتياطات اللازمة [2].

وصلت قوات لويس الصليبية التي كانت زهاء خمسين ألفا يوم الخميس الموافق ١٩ صفر من سنة ٦٤٧هـ/ ٣ حزيران ١٢٤٩م مدينة دمياط

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ ، ص ١٠٥٣ .

(٢) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٢١١.

فوجد الحامية الاسلامية بقيادة الامير فخر الدين بانتظارهم ، ودارت معركة قاسية انتصر فيها الصليبيون مما دفع الامير فخر الدين الى الانسحاب ليلا الى الضفة الشرقية من نهر النيل حيث توجد دمياط، وانسحب من دمياط في اليوم التالي واتجه الى الجنوب حيث توجد أشموم طناح ، فخرج الاهالي تاركين مدينتهم [1]. فدخلها الصليبيون بغير قتال ، وقد غضب السلطان الصالح أيوب وعاقب المتهاونين في الدفاع عن المدينة ، فأمر بشنق كثيرين وذبح اخرين [2].

وقد أدى احتلال دمياط الى غرور لويس الذي قام بارسال كتاب الى السلطان ايوب يستهين به ويدعوه الى الاستسلام ، ولما قرأ السلطان الكتاب تألم كثيرا ، وردّ عليه يخوّفه من عاقبة الغرور وبشّره بخسارته الاكيدة بحربة للمسلمين [3].

واستنفر السلطان الجنود ، وأخذ يرابط مقابل الصليبيين في المنصورة ، ويرسل بين الحين والاخر السرايا للهجوم على الصليبيين ومباغتهم [4]، وكان السلطان مريضا ، وثقل عليه المرض ، ومات وهو مرابط امام الاعداء يوم ١٥ شعبان٦٤٧هـ/ ٢٢ تشرين الثاني ١٢٤٩م ، بعد ان عهد لابنه توران شاه بالسلطنة في مصر ، وقامت زوجته شجرة الدر مكانه حتى

---

(١) المقريزي: السلوك ، ج١ ، ص٣٣٥.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٣٣٠.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢ ، ص٣٤٧.

(٤) المقريزي: السلوك ، ج١ ، ص٣٣٧.

ابن واصل: المصدر السابق ، ص ٣٥٩.

حضر ابنه .

استغل الصليبيون وفاة الملك فأسرعوا بالزحف على القاهرة واختاروا طريق الدلتا وساروا على الضفة الشرقية لفرع دمياط في المنطقة التي تسمى جزيرة دمياط لاحاطتها بالماء من الشمال الشرقي والغرب ومن الجنوب الشرقي ، وكان يعترض طريق الصليبيين بحرا أشموم ومركز تجمع القوات الاسلامية ، مما اعطى المسلمين مركزا جيدا في ضرب الصليبيين وعرقل مسيرهم .

تقدم الصليبيون ، ولكن الماء كان يحاصرهم والمسلمون أمامهم ودارت معركة رهيبة في المنصورة انتصر المسلمون انتصارا ساحقا كبدوهم خسائر فادحة ، وكان قائد الجيش الاسلامي في هذه المعركة بيبرس البندقداري ،ووقع الملك لويس التاسع اسيرا فاقتيد مكبلا بالاغلال الى القاهرة ، وهناك اكرم السلطان تورنشاه مكلنته وعامله بالحسنى.

وتمّ اطلاق سراح لويس التاسع بعد أن تخلى عن دمياط وتعهد بعدم محاربة المسلمين وعقد اتفاقية الهدنة ومدتها عشر سنوات [1].

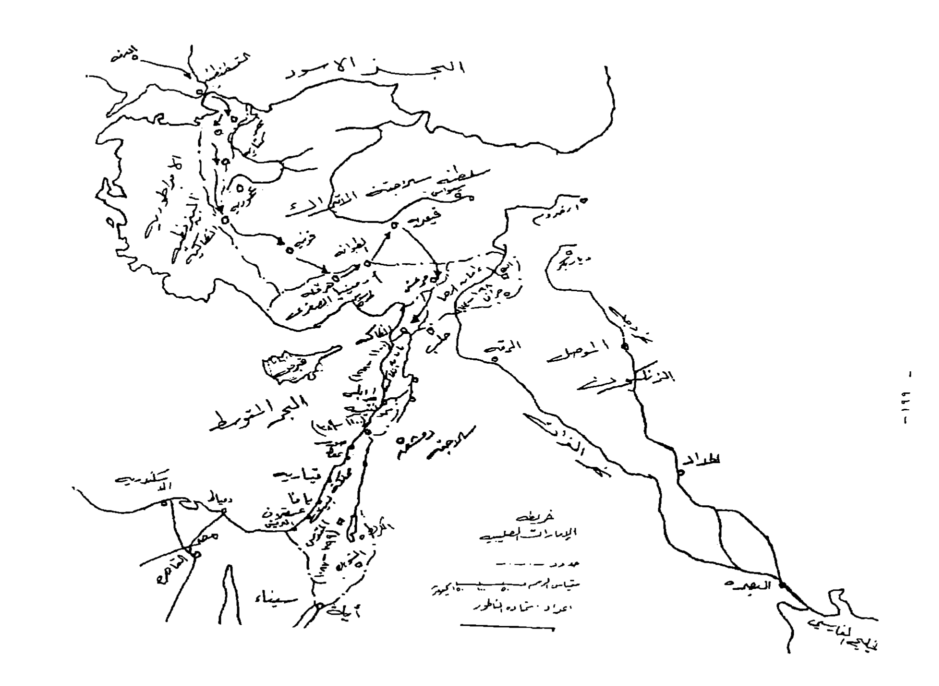
ثم قتل الملك تورنشاه في هذه الفترة ٢٧ محرم سنة ٦٤٨ هـ / ٢ ايار ١٢٥٠م على يد بيبرس البندقداري قائد العسكر ، وبموته انتهى عصر الدولة الايوبية لينتقل الحكم الى سلطة المماليك في مصر .

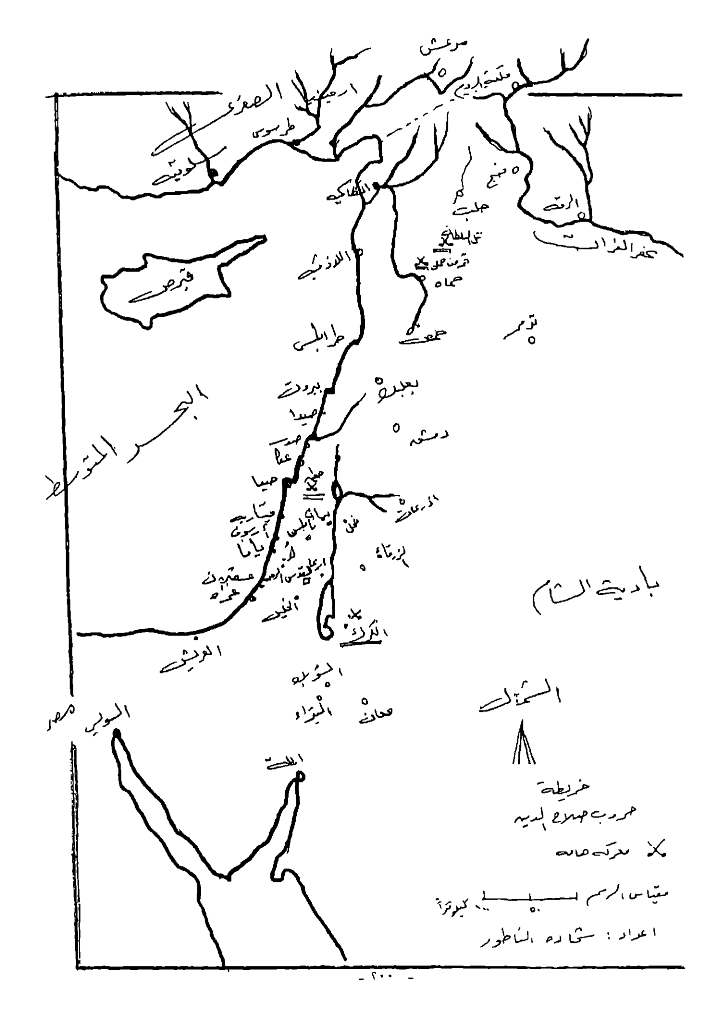
---

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ١٢٦٩ .

البحر الاسود
سينوب
القسطنطينية
نيقيه
جيورليوم
طرابيزون
أرضروم
كبادوكيا
قيصرية
ملطية
الجزيرة
عمورية
فريجيا
ليديا
أزمير
انطاكية الروم
قونية
الطوانه
هرقلة
ادنه
طرطوس
مرعش
رعبان
الرها
عينتاب
سروج
انطاكية
شيزر
اللاذقية
قبرص
طرطوس

الحملة الصليبية الاولى (في آسيا الصغرى)


خريطة
الإمارات الصليبية
البحر الأسود
البحر المتوسط
سلطنة سلاجقة الأتراك
قبرص
دمشق
حلب
الموصل
بغداد
البصرة
الفرات
قيسارية
يافا
عسقلان
دمياط
القاهرة
سيناء
الرها



مرعش
طرسوس
انطاكيه
اللاذقية
منبج
حلب
الرقة
نهر الفرات
حماه
قبرص
طرابلس
حمص
تدمر
بيروت
بعلبك
صيدا
دمشق
صور
عكا
حيفا
قيسارية
يافا
عسقلان
غزة
الخليل
الكرك
البحر المتوسط
بادية الشام
العريش
الشوبك
البتراء
معان
السويس
مصر
الشمال
خريطة
حروب صلاح الدين
معركة هامة
مقياس الرسم
٥٠ كيلومترا
اعداد : شحادة الناطور

الفصل الثامـــن

الغزو المغولي وسقوط الخلافـة العباسيـة

ودور المماليـــك في هزيمتهــــم

. . . .

. . . . .

. . .

. .

.

.

الغزو المغولي وسقوط الخلافة العباسية :-

المغول شعب من الجنس الأصفر ، كانوا يسكنون في الجهات الشمالية من بلاد الصين حول بحيرة بيسكيال ، وتعرف تلك المناطق باسم منغوليا ، التي تمتد من أواسط آسيا جنوبي سيبريا ، وشمال التبّت وغربي منشوريا ، وشرقي التركستان بين جبال التاي غربا وجبال خنجان شرقا ٠

كان المغول قبائل رحل يعيشون على تربية الخيل والماشية ، فهم يتنقلون من مكان الى آخر طلبا للعشب والماء ٠ وقد فرضت عليهم البيئة الصحراوية عادات وتقاليد ترتبط بها فهم في حالة دائمة يبحثون عن المراعي ، وفي حالة غزو دائم ٠ وهم من الناحية الاقتصادية رعاة ، وغزاة من الناحية السياسية ، ومقاتلين من الناحية التاريخية ٠ فحاجة المغول الى المراعي والمحافظة عليها ، احتاجت منهم الى قيام نظام حربي ثابت يقوم على ما يمارسه الرعاة من التدريب المستمر مع ركوب الخيل من أجل القتال والغزو ، وأوجدت فيهم قوّة الاحتمال والصبر على التعب ، فجعلت من المغولي حنديا بارعا قادرا على المبادرة على الهجوم ، فخطتهم الحربية تقوم على الهجوم المفاجئ والارتداد السريع (1) ٠ وهم بذلك يسعون الى الفائدة السريعة التي لا تحتاج الى جهد وعناء ، مما جعلهم يدمرون المظاهر الحضارية ، فقاموا بهدم المباني واحراق الكتب وقتل العلماء والمفكرين ٠

لقد ظهر المغول كدولة في القرن الثاني عشر الميلادى ، وكانت عاصمتهم قرة قورم ، ويقوم النظام عند المغول على الخضوع التام

---

(1) الباز العريني : المغول ، ص ١٢ ، ١٣ ٠

والطاعة العمياء للخان الاعظم والعقوبة الشديدة للمخالفين [1] .

وكان المغول اذا اقتحموا مدينة او بلدا بالقوّة يقتلون آهله بدون تفرقة ، وكان من عادتهم ان يجمعوا كتائب من الأسرى يضعونهم في مقدمة الصفوف ، ثم يبقى القوات المغولية خلفهم ، فيقوم الآسرى بالأعمال الحربية العنيفة ، فيتعرضون للقتل دون أن يجدوا طريقا للفرار ، فاذا ما أنهك الأسرى جيش الاعداء ، تقدم المغول بعد ذلك فينقضون على عدوّهم ويقضون عليه ببساطة [2] .

ويعتبر جنكيزخان مؤسس الامبراطورية المغولية (٥٥٠ ـ ٦٢٤ هـ / ١١٥٥م ـ ١٢٢٧م) فقد استطاع أن يوّحد قبائل المغول والتتار في امبراطورية واحدة ، جعل قاعدتها وعاصمتها قرة قورم [3] ، وامتدت سياسته العدوانية التوسعية نحو الحنوب ثم نحو الغرب فاصطدم بالقوى الاسلامية من بينها الدولة الخوارزمية ، فاحتلها عام ١٢٢٠م . ولقيت تلك البلاد من الفظائع والجرائم وألوان الدمار والخراب الشئ الكثير .

توفي جنكيزخان عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م بعد ان حكم خمسا وعشرين سنة بعد أن ترك لأولاده الأربعة امبراطورية واسعة وآوصاهم بالوحدة والاتفاق ،

وفي عام ١٢٥١ آلت زعامة المغول الى هولاكو الذى قام بالزحف الى همدان فقضى على طائفة الاسماعيلية فيها ، واستسلمت له قلعة الموت .

---

(١) ابراهيم العدوى : التاريخ الاسلامي ، ص ٣٨١ .
(٢) كايد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٣١٠ ـ ٣١٢ .

في كانون أول سنة ١٢٥٦م ، وأحرق كل ما يتعلق بعقائد الاسماعيلية [(١)]

وكان يتولى الخلافة العباسية في بغداد عند قدوم هولاكو المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢ - ١٢٥٨م) وهو الخليفة السابع والثلاثين من الخلفاء العباسيين ، الذي أحاط نفسه بكل مظاهر العظمة ، وقد اشتدت العداوة في بلاطه بين وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي ، وكاتبه السني مجاهد الدين ايبك الدوادار الذي كان يلقي التأييد والمساندة من ولي العهد أبي بكر بن الخليفة ، وكانت بغداد حصينة جدا ، وباستطاعة الخليفة حشد ما يزيد على مائة ألف مقاتل عند توفر الثقة في الامراء والقادة ، ونظرا لعدم الثقة أشار عليه الوزير العلقمي بتخفيض الجيش الى الخمس .

وساعد في سوء الأحوال عند اقتراب الكارثة ، وقوع فتن ومنازعات داخلية بين عناصر افراد المجتمع من أهل السنة والشيعة والمسيحيين واليهود، ولعل ابرزها اندلاع الفتنة بين السنة والشيعة ، ووقوف ولي العهد ضد الشيعة ، مما أدى الى نهب الكرخ حيث يقطن الشيعة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) [(٢)]

أرسل هولاكو الى الخليفة العباسي المستعصم بالله كتابا يعاتبه فيه على عدم تقديم الجند له اثناء محاربة الحشاشين ، ثم طلب اليه :

١ - أن يهدم الحصون ، ويردم الخنادق ، ويسلم البلاد لابنه .

٢ - أن يحضر لمقابلته او يرسل الوزير سليمان شاه ، والدويدار يحملان رسالته .

وختم هولاكو كتابه بالتهديد والوعيد " اذا استمع الخليفة لهذا

---

(١) الباز العريني : المغول ، ص ٢١١ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج٣ ، ص ١٩٣ .

النصح تجنب حقده عليه ، والاّ عرّض جيوشه للهزيمة أمام جيوش المغول التي قهرت جيوش خوارزم وايران " (1)

ورد الخليفة على تهديد هولاكو بكتاب بعثه مع شرف الدين بن الجوزي ، يدعوه فيه الى الابتعاد عن الغرور ، والعودة الى بلاده منغوليا ، ومما جاء في الرد : " لقد جعلت نفسك فوق العالم أجمع ، وظننت ان اوامرك هي أوامر القضاء كيف تطلب مني طلبا لا تستطيع تنفيذه ؟ أيخيل اليك أنك بذكائك وقوّة جيشك ، وشجاعتك ستأسر نجما من النجوم ؟ " ثم أخذ الخليفة يبين مكانة الخلافة " ان ملايين من الفرسان والرجالة على استعداد للقتال ، وهم رهن إشارتي ، حتى اذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر " ثم ختم كتابه " فما بالك بخنادق رعيتي وحصونهم ؟ فاسلك طريق الود وعد الى خرسان ، وان كنت تريد الحرب ، فلا تتوان لحظة ، ولا تعتذر اذا عزمت ، ان لي آلوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة على أتمّ استعداد لخوض غمار الحرب " (2).

ولمّا استسلم هولاكو الرسالة أبدى امتعاضه وردّ على الخليفة بأنه مصمم على الحرب وأنه قادم وأنه منتصر لا محالة .

استشار الخليفة مستشاريه ، فأشار عليه وزيره ابن العلقمي باسترضاء هولاكو عن طريق تقديم الاعتذار ودفع اليه أثمن النفائس (3). وقد مال الخليفة للأخذ بهذا الرأي ، ولكن مجاهد الدين الداويدار الذي استمال بعض الأمراء اليه ، وبعثوا الى الخليفة برسالة يقولون فيها ان رأي

---

(1) رشيد الدين : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج١ ، ص ٢٦٨ .
(2) المصدر نفسه ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
(3) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

ابن العلقمي يُعرّض الهلاك الى البلاد على أيدى المغول ، وتعهدوا له بأخذ الحيطة لدرء خطر المغول [1].

وقد أدى تبادل المراسلات بين هولاكو والخليفة المستعصم الى اتساع الهوّة وجعل الحروب حتمية بين الطرفين .

ولمّا تأكد هولاكو أنه قد أصبح في استطاعته الاستيلاء على بغداد ، أقدم على غزو العراق ، وتطبيق خطته الحربية التي تقضي بمحاصرة المدينة بجيوشه من جميع النواحي ، فأرسل أحد قواده " باجو " لمهاجمة بغداد من الجهة الغربية ، وسار هو على رأس فريق من الجيش لمحاصرتها من الناحية الشرقية وبصحبته كثير من أمراء المسلمين من امثال أبى سعد زنكى أتابك شيراز ، وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل ، وسكرتيره الخاص عطا ملك الجوينى ونصير الدين الطوسي الفلكي والحكيم المشهور [2] .

أمر هولاكو باجو بالاسراع بعبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من ناحية الغرب ، وتمكنت قوات باجو من عبور النهر حيث دار الحرب بين الفريقين ، ولكن الهزيمة حلت بالجيش العباسي في العاشر من المحرم سنة ٦٥٦هـ . واستولى باجو وجنده على الجانب الغربي من بغداد ونزلوا فى احياء المدينة على شاطئ نهر دجلة وسيطروا على جميع أحزائها .

استغل هولاكو انشغال الجيش العباسى من الناحية الغربية ، وهاجم المدينة من الجهة الشرقية بجيش بلغ مائتى ألف مقاتل [3]. بينما كان

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، مجلد ٢ ، ج١ ، ص ٢٦٨ .

(٢) براون : تاريخ الادب في ايران ، ج٢، ص ٢٨٣، حسن ابراهيم:تاريخ الاسلامج٤ص١٥٧

(٣) ابن كثير :البداية والنهاية ، ج٣ ، ص ٢٠٠ .

لا يزيد عسكر الخليفة على ثلاثين الفا بقيادة مجاهد الدين ايبك ، والتقى عسكر الخليفة مع عسكر المغول ، فكانت الغلبة لعسكر الخليفة باديْ الامر ثم انقلبت الصورة بانتصار المغول ٠ وقام العسكر وفي الرابع من شهر محرم من سنة ٦٥٦هـ حتى التاسع عشر من شهر محرم حيث شاهد الناس رايات المغول في بغداد ، حيث أقدم المغول على القتل والنهب والتمثيل العظيم ما يعظم سماعه ، فقرر الخليفة تسليم المدينة ، فقام الخليفة بارسال الكثير من الهدايا الثمينة معلنا رضاه بالتسليم ووقف القتال ، ولم تمض على ذلك بضعة أيام حتى خدع المغول ، فقام الخليفة بملاقاة هولاكو وكان بصحبته أولاده الثلاثة وهم ولده الاكبر ابو العباس احمد ، وولده الاوسط أبو الفضائل عبدالرحمن ، وولده الاصغر ابو المناقب مبارك ، ولما مثل الخليفة بين يدى هولاكو أحضر لهولاكو كثيرا من الجواهر والنفائس والسبائك الذهبية ، ثم طلب هولاكو من الخليفة ان يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم ، فأنفذ الخليفة رسولا من قبله ينادى الناس بأن يلقوا السلاح ويخرجوا من الاسوار ، غير أنهم لم يكادوا يلبون طلبه ، حتى أمر هولاكو جنده فانقضوا عليهم وقتلوهم شر قتلة ، وأخذ المغول يجردون القصور من التحف النادرة ، واتلفوا عددا كبيرا من الكتب القيمة في مكتباتها ، وأهلكوا كثيرا من رجال العلم ٠[1]

وأعمل المغول السيف في رقاب اهل بغداد أربعين يوما سلبوا فيها احوالهم وأهلكوا كثيرين من رجال العلم ، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن ، وتعطلت المساجد والمدارس ، وأصبحت بغداد قاعا صفصفا ليس بها الا فئة قليلة مشردة الاذهان ، وكان القتلى فى الطرقات كأنها التلال ، وقدر

(١) براون: تاريخ الادب في ايران ، ص ٥٨٦ ٠

السبكي القتلى بتسعمائة الف [1] .

وانتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة وابنيه أبي العباس احمد وأبي الفضائل عبدالرحمن وأسر ابنه الاصغر مبارك واخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم [2] .

وبسقوط بغداد زالت الدولة العباسية ، وزالت معها الخلافة العباسية كذلك ، فانتشرت الفوضى والاضطرابات في العراق وبلاد الشام، مما أدى الى تدهور الشرق سياسيا وعلميا وثقافيا .

زحف هولاكو من بغداد الى الشام مارا بالموصل وحران والرها ، فأعمل السيف بالسكان ، ثم توّجه الى حلب فاستولى عليها ، ومنها توّجه الى دمشق التي سقطت بيده .

وكان يحكم مصر حينئذ علي بن المعز ايبك التركماني ، وكان صغير السن ، وكان الحاكم الفعلي سيف الدين قطز نائبا له ، ولمّا كان قطز يريد الخروج للجهاد والدفاع عن بلاد الاسلام بقتال المغول ، رأى قطز ان ذلك لا يتسنى له والاحوال في مصر على حالها حيث يحكم البلاد سلطان صغير، لا يستطيع القيام بواجب الجهاد ضد العدو ، فجمع قطز الامراء والاعيان واستشارهم بعزل الملك المنصور على بن المعز ايبك ، فوافقوا على ذلك ، وبايعوه بالسلطنة على البلاد .

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ص ١١٥ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ج٤ ، ص ١٦١ .

وفي اوائل شهر كانون الثاني من عام ١٢٦٠ ، وجه هولاكو سفارة الى مصر ، تطلب الى السلطان قطز تسليم مصر ، وهددهم وتوّعدهم ان هم خالفوه ، فاجتمع قطز بالامراء للتشاور ، فقرروا الجهاد ضد التتار بعد تردد عدد من الامراء ، فقال لهم قطز " يا امراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوّجه، فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته ، فان الله مطلع عليه ، وخطيئه المسلمين في رقاب المتأخرين " ثم تكلم الامراء المؤيدون ، فلم يسع البقية المعارضة الا الموافقة ، وانفض الاجتماع ، وكل مجمع على قتال التتار ، ثم أحضر قطز رسل هولاكو الاربعة وقطع رؤوسهم ، وعلقها في اماكن متعددة في القاهرة .

وهكذا صمم الملك المظفر قطز على قتال العدو والخروج لمواجهته، فأصدر أوامره بجمع الجيش والاستعداد للخروج للجهاد في سبيل الله ونصرة دينه ، وطالب الولاة " بازعاج الاجناد في الخروج للسفر ، ومن وجدوا منهم قد اختفى يضرب بالمقارع " ولما استكمل قطز **استعداداته** ركب في الليل " وحرّك كوساته [1]" وقال : " أنا ألقي التتار بنفسي " فلما رأى الامراء المعارضون والمترددون تصميم قطز واتباعه ، انماعوا له وساروا معه .

وسار الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بمقدمة الجيش للاستطلاع ، وكشف أخبار العدو حتى وصل غزة ، حيث التقى بمقدمة الجيش المغولي بقيادة بيدار ، فلما رأى طليعة المسلمين ، ارسل الى كتبغا في بعلبك يخبره بتحركات المماليك ويطلب منه النجدة ، حيث طلب منه

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج٤، ص٤ : الكوسات : هي صنوجات من نحاس تشبه الترس يدق احدها بالاخر بايقاع مخصوص ومع ذلك طبول،وهي تدق في اوقات خاصة

كتبغا " قف مكانك وانتظر " ولكن بيبرس لم يمهله ، هاجمه وهزم التتار وطاردهم بيبرس حتى نهر العاصي ٠٠ وقد كان لهذه المعركة أثر كبير في الروح المعنوية للمسلمين ، فقد ارتفعت الروح المعنوية ، وكسرت حاجز الخوف عندهم ، وأكدّت لهم أن النصر من عند الله يمنحه لعباده المخلصين ٠

أما بالنسبة لهولاكو ، فقد عاد الى بلاده بسبب موت مونكاخان حتى يكون قريبا من الاحداث في بلاده ، وترك قائده كتبغا مع قوّة عسكرية حوالى ثلاثين ألفا ، وكان كتبغا قائد مقدمة جيش التتار ، فلما علم بما لحق بمقدمة جيشه في غزة من الهزيمة ، جمع التتار الذين كانوا قد تفرقوا في بلاد الشام ، وعزم على مهاجمة المسلمين ، ولكن عرض على الصليبيين في امارة عكا ان يحالفوه على قتال المسلمين ، ولكن قطز كان قطع عليه الطريق ، فقد عرّج عليهم اثناء مسيره لقتال المغول على الصليبيين ، وهددهم ، فضمن حيادهم في المعركة بين التتار والمسلمين ٠

موقعة عين جالوت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م ٠

لقد كانت مبادرة قطز لقتال المغول ترجع الى ايمانه وعزمه على الجهاد ، لما سمعه من كثرة المناحات والفجائع في البلاد التي مروا بها ، بعد ان قضوا على جميع الحرث والنسل وازهقوا الارواح والاحياء ، فهو لم يكن امامه سوى الصلح او القتال او الجلاء عن مصر ، اما الاحتمال الاول فهو سيؤدي الى الذل والقتل فيما بعد ، اما الاحتمال الثالث فاين يتجه عن جلاء مصر ، لذلك لم يجد امامه سوى احتمال القتال والدفاع عن

الاسلام والمسلمين .

تقدم المظفر قطز متجها نحو بيسان ، فوقف بقواته في عين جالوت الواقعة غربي بيسان ، حيث كان التتار ، أمر السلطان قطز بجمع الامراء وقادة الجيش وحضهم على القتال ورغبهم فيه ، وذكرهم بما لحق ببلاد الاسلام من القتل والدمار والحريق ، وألح في دعائه لهم بنصرة الاسلام والجهاد في سبيل الله ، وخوفهم من عقاب الله ان هم ولوا الادبار امام عدوهم ، تأثر القادة والجنود " فضجوا بالبكاء ، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار ودفعهم عن البلاد " (١)

وفي صباح الخامس والعشرين من شهر رمضان ٦٥٨هـ/ اوائل ايلول ١٢٦٠م تقدم بيبرس البندقداري بفرقة الكشافة لاستطلاع اخبار العدو ومناوشته، حتى يصل السلطان ببقية الجيش . واخذ بيبرس يلتقي بطلائع التتار ، ويناوشهم حتى اصطدمت طليعة المسلمين مع طليعة التتار ، واشتد القتال حتى انهزم العدو في اللقاء الاول . والتقى الجمعان وكان الوادي قد امتلأ بالناس من سكان القرى والضياع ، فكثر صياحهم ودعاؤهم بالنصر ودقت طبول الحرب واشتد القتال ، وتقاتلا قتالا شديدا لم ير مثله حتى قتل من الطائفتين جماعة كثيرة (٢) . واشتد القتال ، فألقى قطز خوذته عن رأسه الى الارض ، وصرخ بأعلى صوته " **واسلاماه** " فاشتدت عزائم المسلمين ، وحملوا على العدو حملة صادقة ، فاشتد القتال ، مما حدا بكتبغا ليقاتل بنفسه ، وكان بيبرس قد نصب كمينا للتتار في المنطقة،

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٣٠ .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٧٩ .

وعند لقاء العدو بطليعة المسلمين ، انكسرت هذه الطليعة وانسحبت ، فتشجع المغول وتعقبوا المسلمين وقتلوا بعضهم ، وعندما وصلوا الى الكمين الذى كان اعده بيبرس ، فانقضت عليهم القوات الاسلامية من ثلاث جهات ، استبسلت القوات الاسلامية في قتال العدو ، وقاتلوهم قتالا مستميتا من الفجر حتى منتصف النهار ، ثم تعذرت المقاومة على جيش المغول ز ولحقت بهم الهزيمة أخر الامر [١] .

وهكذا انهزم المغول شر هزيمة ، وولوا الادبار ، وقتل مقدمهم كتبغا بيد الامير جمال الدين أقوش الشمسي ٠ وانهزم التتار الى الجبل المجاور بادئ الامر ، فتبعهم جنود المسلمين ، فقتلوا معظمهم ، واسر اخرون [٢] ٠

وتابعت الفرق الاسلامية التتار المنهزمين حتى حمص ، فألقوا متاعهم ومعداتهم ، وتخطفهم المسلمون ، وقتلوا خلقا كثيرا ، وأقبلت جموع العساكر الاسلامية ، وقد امتلأت ايديهم بأسلاب وغنائم المغول ٠ وتتبع الامير فلول التتار حتى حدود الفرات [٣] .

ويعتبر هذا الانتصار انتصارا للحضارة ، وانقاذا للمدنية من هؤلاء الهمج ، الذين لو لم تدر عليهم الدائرة لامتد ضررهم الى العالم والانسانية [٤]

---

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج١ ، ص ٣١٤ ٠

(٢) المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق ١ ، ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ٠ ابن كثير البداية والنهاية : ج١٣ ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ٠ ابو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٧٩ ٠

(٣) المقريزى : المصدر السابق ، ص ٤٣١ ٠

(٤) احمد شلبي : التاريخ الاسلامي والحضارة ، ص ١٩٨ ٠

وكان لهذا النصر ابلغ الاثر على المسلمين ، مما حدا بالظاهر بيبرس عندما آلت اليه السلطنة اقامة نصب تذكاري تخليدا لذكرى انتصار المسلمين على التتار وسماه " مشهد النصر " [1].

وقد كان لهذه الموقعة الكبرى والحاسمة نتائج عديدة منها :
فقد ثبتت دعائم دولة المماليك في مصر والشام ، كما كانت نهاية الدولة الايوبية ، كما انها انقذت بلاد الشام من الاحتلال المغولي ، وتحول القوة الاسلامية من الدفاع الى الهجوم وسحق قوى العدو ومطاردته بحيث تحطمت قواتهم بعد هذه الهزيمة التي لم تقع مثلها [2] . كما عجلت وقعة عين جالوت بزوال ما تبقى من الامارات الصليبية [3] .

تقدم المظفر قطز حتى وصل دمشق ، فدخلها ورتب امور بلاد الشام ، وقّر الولاة والنواب ، وعادت بلاد الشام الى حكم الاسلام ، ودخلت تحت حكم دولة المماليك منذ ذلك الحين ، والمظفر قطز هو اول من ملك البلاد الشامية واسترجعها من ملوك التتار ، واعاد المظفر الطمأنينة للبلاد والعباد ، ثم شرع في العودة الى الديار المصرية وغادر دمشق يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شوال عام ٦٥٨هـ/ تشرين الاول ١٢٦٠م ، واثناء محاولة لصيد أرنب في الصحراء ثم اغتياله وقتله ، فتولى السلطة الظاهر بيبرس .

---

(١) سعيد عاشور ، الظاهر بيبرس ، ص ٣٣ .

(٢) فايد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول .ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) الباز العريني : المغول ، ص ٢٦٤ .

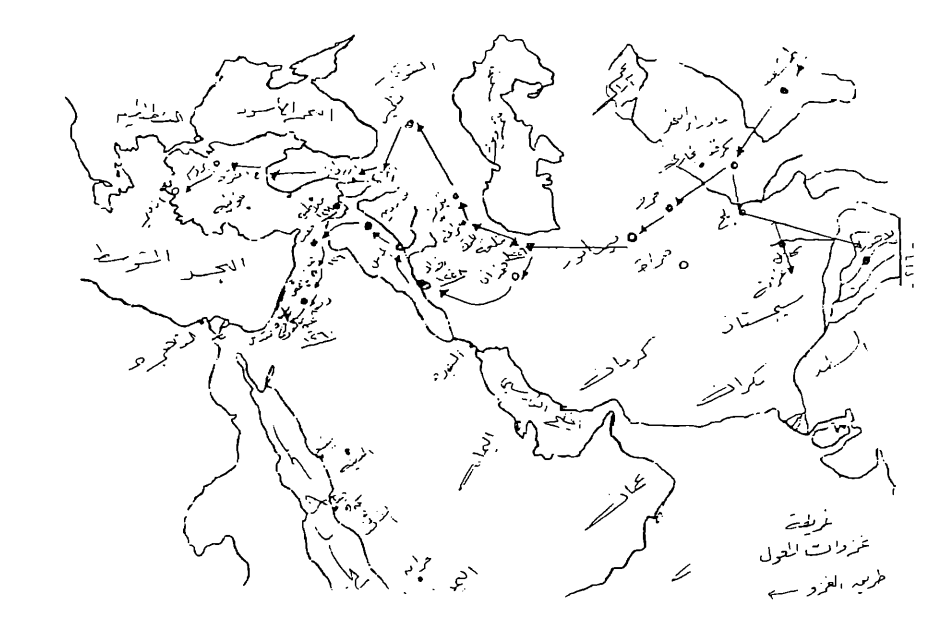
لم تنتـه الحـروب بين المغول والمماليـك ، بل وقعت بينهـم عـــدة معــارك ، ففي عهـد السلطـان قـلاوون هاجـم المغـول حمص ، فأوقـع بهم هزيمـة منكـرة . وفي عهـد الناصر هاجموا دمشق واحتلوهـا ، فالتقى بهم بالقـرب من دمشـق وهزمهــم وأسر منهـم عشـرة آلاف جنـدي وعقد معهـم صلحا سنـة ٧٣٢هـ/ ١٣٢٢م [1] .

وفى مطلـع القـرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، هاجم تيمولنك بغـداد وسـار الى حلـب وحمص وبعلبـك ودمشق ثم اتجه الى آسيـا الصغـرى، فالتقى بالعثمانيين ، وأسـر بايزيد الاول سنـة ١٤٠٢م الا انـه مـات سنـة ١٤٠٤م ودب الخوف بين خلفائه مما اتـاح للمماليك استعادة شمال بلاد الشـام .

وهكـذا قـدر للعالم الاسلامي أن يواجـه الغزاة مـرة اخـرى ، ولكـن هـؤلاء الغزاة كانـوا قسـاة القلـوب متوحشيـن ، دمـروا اكبـر مدينـة في العالـم ، وقضـوا على مظاهـر الحضـارة في المشرق الاسلامي ، وكانت نهايتهم في عيـن جالـوت ، وكأن فلسطين وأرضهـا قـد أعـدت لتكـون مقبـرة للغزاة الطامعيـن .

---

(١) المقريزى : السلوك ، قسم ٣ ، ص ٩٣٨ ـ ٩٤٠ .



خريطة
غزوات المغول
طريق الغزو ←
البحر الأسود
البحر
المتوسط
بخارى
بلخ
هراة
غزنة
سجستان
كرمان
مكران
السند
البصرة
بغداد
اليمامة
عمان
المدينة

أهم المصادر والمراجع

ابن الاثير : علي ابن الكرم ، محمد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)

- الكامل في التاريخ ،

بيروت : دار الكتاب العربي سنة ١٩٦٧ ، بولاق ١٢٧٤هـ ، دار صادر سنة ١٩٧٩ ·

- الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية · تحقيق عبدالقادر طليمات القاهرة سنة ١٩٦٣ ·

ابن أبي أصبيعة : " موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٧٠ م)

- عيون الانباء في طبقات الاطباء ·

بيروت : دار الفكر ، سنة ١٣٧١ هـ / القاهرة ١٣٠٠ هـ ·

أرنولد، سير توماس

- الدعوة الى الاسلام : ترجمة حسن ابراهيم حسن وزملاؤه ·

القاهرة : مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧ ·

أحمد ، حمدي حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول .

القاهرة : دار الفكر العربي ، سنة ١٩٤٩

- الشرق الاسلامي قبل الغزو المغولي .

القاهرة : دار الفكر العربي ، سنة ١٩٥٠

أمين ، حسين :

- تاريخ العراق في العصر السلجوقي ,

بغداد : مطبعة الارشاد ، سنة ١٩٦٥

الاصفهاني ، عماد الدين : تاريخ دولة سلجوق ،

بيروت : دار الآفاق ، ط ٣ ، سنة ١٩٨٠ ·

الاصفهاني ، عماد الدين : تاريخ دولة سلجون

بيروت : دار الآفاق ، ط ٣ ، سنة ١٩٨٠

بركلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : نبيه فارس ، منير بعلبكي .

بيروت : دار العلم للملايين ، ط ٤ ، سنة ١٩٦٥ .

برجاوى ، سعيد أحمد : الحروب الصليبية في المشرق .

بيروت : دار الآفاق ، سنة ١٩٨٤

بيضون ، د . ابراهيم : التاريخ السياسي للدولة العباسية .

أبوبدر ، شاكر أحمد : الحروب الصليبية والاسرة الزنكية .

بيروت : الجامعة اللبنانية ، سنة ١٩٧٣

البيطار ، أمينه : تاريخ العصر الايوبي .

دمشق : جامعة دمشق ، سنة ١٩٨٢

بروج ، أنتوني : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد غسان سبانو

دمشق : دار قتيبة ، سنة ١٩٨٥

التكريتي ، محمود ياسين :

- الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة ،

بغداد : وزارة الثقافة ، سنة ١٩٨١

التميمي ، رفيق : الحروب الصليبية .

يافا : دار الظاهر ، سنة ١٩٤٧

الجميلي ، رشيد : دولة الاتابكة في الموصل .

بيروت : دار النهضة ، سنة ١٩٧٠

حسن ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٧٣

حتى ، د • فيليب : تاريخ العرب المطول .

بيروت : دار الكشاف ، ط سنة ١٩٥٣ ، ط ٤ سنة ١٩٦٥

حيدر ، محمد علي : الدويلات الاسلامية في المشرق .

القاهرة : عالم الكتب ، سنة ١٩٧٤

حسنين ، عبدالمنعم محمد : دولة السلاجقة .

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، سنة ١٩٧٥

حبش ، د • حسن: نور الدين والصليبيون .

القاهرة ، سنة ١٩٤٨

خيل ، د. عماد الدين : المقاومة الاسلامية للغزو الصليبي .

الرياض : مكتبة المعارف ، سنة ١٩٨١

ابن خلكان ، شس الدين ، أحمد بن محمد (ت ٩٨١ هـ / ١٣٢٤ م)

وفيات الاعيان وأبناء الزمان (تحقيق د • احسان عباس)

بيروت : ومطبعة القاهرة ، وبولاق .

خليفة ، حسن : الدولة العباسية ، قيامها وسقوطها •

القاهرة : المكتبة الحديثة ، سنة (بلا)

الدوري ، د • عبدالعزيز : دراسات في العصور العباسية المتأخرة .

بغداد ، سنة ١٩٤٥ .

دونالرولبر : ايران ماضيها وحاضرها .

ترجمة : عبدالمنعم حسين •

الدهان ، د • محمد سامي : الناصر صلاح الدين الايوبي .

القاهرة : الدار المصرية ، سنة ١٩٦٥

زكار ، د . سهيل : الحروب الصليبية (مجلد.ن ، شهود عيان)
دمشق : دار حسان ، سنة ١٩٨٤
مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية .
بيروت : مؤسسة الرسالة ، سنة ١٩٧٣
سيد الاهل ، عبدالعزيز : أيام صلاح الدين .
بيروت : المكتب .لتجارى ، سنة ١٩٦١
سرور ، د . جمال الدين : تاريخ الحضارة الاسلامية .
القاهرة : دار الفكر العربي .
سعيد ، أحمد : تاريخ الدول الاسلامية والاسر الحاكمة .
القاهرة (بــلا)
السيوطي ، جلال الدين بن عبدالرحمن (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)
تاريخ الخلفاء ، تحقيق محي الدين عبدالحميد ،
القاهرة : المكتبة التجارية ، سنة ١٩٦٩
سميل ، ر ، سي : الحروب الصليبية (ترجمة سامي هاشم)
بيروت : المؤسسة العربية ، سنة ١٩٨٢
شلبي ، د . أحمد : موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ،
القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ط٧ ، سنة ١٩٨١
شعبان ، د . محمد عبدالحي : الدولة العباسية والفاطميون .
بيروت : الاهلية للنشر والتوزيع ، سنة ١٩٨١
ابن شداد ، كمال عز الدين عبدالله بن محمد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .
(سيرة صلاح الدين الايوبي)

أبوشامه : عبدالرحمن اسماعيل .

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق

د . محمد حلمي أحمد .

القاهرة ، سنة ١٩٥٦

صبره ، عفاف سيد : دراسات في تاريخ الحروب الصليبية .

القاهرة : دار الكتاب الجامعي ، سنة ١٩٨٥

صفوت ، د . أنطون خيل

– الدولة المملوكة

بيروت : دار الحداثة ، سنة ١٩٨٠

ابن طباطبا ، محمد بن علي (ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م)

الفخرى في الآداب السلطانية .

القاهرة ، سنة ١٣٢٦ هـ ، بيروت : دار صادر ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٦ م

الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)

تاريخ الرسل والملوك " تاريخ الطبري "

دار المعارف ، سنة ١٩٦٠ ـ ١٩١٠ م

عاشور ، سعيد عبدالفتاح .

ـ الحركة الصليبية (مجلدان)

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، سنة ١٩٧١

– الناصر صلاح الدين (سلسلة أعلام العرب عدد ٤١)

القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٦٥

عاشور ، د . فايد حماد : جهاد المسلمين في الحروب الصليبية .

بيروت : مؤسسة الرسالة ، سنة ١٩٨١

ابن العديم ، كمال الدين أبي القاسم عمر أحمد (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م)
زبدة حلب ، حـ ٢ ، ٣ ، تحقيق د • سامي الدهان .
بيروت ، سنة ١٩٦٨
العيني ، أبونصر محمد بن عبدالجبار (٤٢٨ هـ / ١٣٦ م)
تاريخ اليمني ، القاهرة ، سنة ١٢٨٦ هـ
العريني ، سيد باز : المغول .
بيروت : دار لنهضة ، سنة ١٩٨٨
عبدالرؤوف ، عصام الدين : الدول المستقلة في الشرق •
القاهرة : دا ر الفكر ، سنة ١٩٧٠
العبود ، نافع توفيق : الدولة الخوارزمية •
بغداد : مطبعة جامعة بغداد ، سنة ١٩٧٨
الغامدى ، سعيد بن محمد : صلاح الدين والايوبيين : مكة المكرمة ، المكتبة
الفيصلية ، سنة ١٩٨٥
غرايبة ، د • عبدالكريم : العرب والاتراك •
دمشق ، جامعة دمشق ، سنة ١٩٦٠
القزويني ، عبدالله زكريا الانصارى (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٨٣ م)
ـ آثار البلاد في أطيار العباد •
جوتيمين ، سنة ١٨٩٨ ، بيروت دار صادر سنة (بلا)
ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)
ـــ البداية والنهاية •
القاهرة : سنة ١٩٣٩ • بيروت : مكتبة المعارف ، سنة ١٩٧٧

لوبون ، غوستاف لوبون

– حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر)

القاهرة : الباب الحلبي ، حـ ٤١ ، سنة ١٩٦٤

متز ، آدم ، الحضارة الاسلامية ، ترجمة محمد عبدالهادى أبوريده .

بيروت : دار الكتاب اللبنانى ، ط ٤ ، سنة ١٩٦٧

أبوالمحاسن ، جمال الدين أبوالمحاسن ابن تغرى بردى (ت ٨٤ ٧ هـ / ١٤٧٠ م)

– النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .

القاهرة : وزارة الثقافة ، سنة ١٩٦٤

المعضيدى ، خاشع • دسولى عبد محمد ، دريد عبدالقادر نورى

– الوطن العربى والغزو الصليبي .

بغداد ، وزارة التعليم العالي ، سنة ١٩٨٨

المسعودي ، أبوالحسن علـى (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٥ م)

– مروج الذهب ومعادن الجوهر .

بيروت : دار الفكر ، ط ٥ ، سنة ١٩٧٣ ، القاهرة : سنة ١٣٤٦ هـ

ابن مسكوية ، أبوعلي بن محمد (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م)

تجارب الامم : تحقيق أحمد روز

القاهرة : سنة ١٩١٥

مشكور ، محمد جواد : السلاجقة في آسيا الصغرى

طهران ، سنة ١٣٥٠ هـ

النبراوى ، د • فتحية : العلاقات السياسية الاسلامية وصراع القوى فى العصور الوسطى

القاهرة : مكتبة وهبه ، سنة ١٩٨٢ .

ابن النديم ، محمد بن اسحق (ت ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م)

– الفهرست .

بيروت : دار المعرفة ، سنة ١٩٧٨

النرشحي ، أبوبكر محمد بن جعفر (ت ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م :

تاريخ بخارى عربه عن الفارسية د ٠ أمين بدوى ، نصر الله الطرازى

القاهرة : دار المعارف ١٩٦٥

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٥٧ هـ / ١٢٩٧م)

– مفرج الكروب في أخبار بني أيوب .

تحقيق د ٠ جمال الشيال ، القاهرة : سنة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧

ياقوت ، شهاب الدين أبوعبدالله الحموى الرومي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م)

– معجم البلدان .

القاهرة سنة ١٩٠٦ ٠

بيروت : دار الكتاب العربي ، سنة ١٩٨٠ ٠

الفهـــرس


المطابع التعاونية - عمان